القسم الأول

الأسس النفسية للتكامل الاجتماعى
دراسة ارتقائيه

الباب الأول : من التجمعات الحيوانية إلى الجماعات البشرية .

الباب الثانى : ارتقاء الاستجابات الاجتماعية منذ الطفولة .

الباب الأول

من التجمعات الحيوانية إلى الجماعات البشرية

مقدمة

معنى التكامل الاجتماعى – بعض مظاهر التكامل الاجتماعى

معنى التكامل الاجتماعى:

موضوع هذا البحث هو الكشف عن الأسس النفسية للتكامل[1] الاجتماعى. والخطوة الأولى فى هذا السبيل هى أن نحدد ميدان بحثنا ، لنبين (على وجه التقريب) مجموعة الظواهر التى سوف تكون موضع عنايتنا دون غيرها . وهنا نرى لزاما علينا أن نبدأ بتحديد تقريبى لمعنى التكامل ، علما بأن هذا التحديد سيظل مليئاً بثغرات لن يسدها إلا مضمون البحث نفسه .

لا يقتصر استخدام مفهوم التكامل على مجال الظواهر الاجتماعية فحسب ولكنه يستخدم فى مجالى الظواهر البيولوجية والسيكولوجية كذلك ، أى أنه يستخدم فى جميع مجالات الحياة (A. Lalande 1925) . ولذلك نفهم كيف أن باحثاً مثل جدسون هيريك يقرر أن التكامل هو الشرط الأول للبقاء (C.J. Herrick 1949) ، وبعبارة أخرى أن التكامل هو الصفة الأولى والرئيسية للمادة الحية .

فالموسوعة البريطانية وجوليان هكسلى J. Huxley وآخرون يستخدمونه فى مستوى الظواهر البيولوجية ، فى حين يستخدمه أندرسون (H.H. Anderson 1943) وكاتل (R.B. Cattell 1943) ووِنثروب (H. Winthrop 1946) والدكتور يوسف مراد (١٩٤٨) فى مستوى الظـــواهر السيكولوجية ، ويستخدمه دوركهم

---

(١) integration

(E. Durkheim 1926) وكاتل فى مستوى الظواهر الاجتماعية .

والقسط المشترك بين الاستعمالات الثلاث لدى هؤلاء الكتاب جميعاً هو أن التكامل يشير إلى تآزر[١] مجموعة الوظائف الحيوية (البيولوجية أو السيكولوجية أو الاجتماعية) فى سبيل الإبقاء على وحدة الكل ، وبذلك يكون لدينا فى النهاية كائن حى أو شخصية أو مجتمع ، لا مجرد مجموعة من الخلايا أو الملكات أو الأفراد .

إلا أن جدسون هيريك يقرر أن التكامل لا ينطوى على معنى التآزر فحسب ، بل وعلى معنى التغاير[٢] أيضاً (C.J. Herrick 1949) . ومن ثم فالتكامل عملية[٣] كبرى ، وليس مجرد حالة . ولهذا الرأى أهمية بالغة فى الرد على بعض النظريات الاجتماعية التى لا ترى فى المجتمع المتكامل إلا جانب الاستقرار ، فتقرر أنه صفته الكبرى والرئيسية . ومن هذا القبيل نظرية برجسون (م. سويف ١٩٤٩ ، H. Bergson 1932) ذلك أن التكامل هنا تكامل فى مستوى المادة الحية ، ومن ثم فلا بد أن يكون تكاملا ديناميًّا لا تكاملا ثباتيًّا (استانيكيًّا) كالتكامل بين أجزاء الآلة ، إذا جاز استخدام الاصطلاح فى هذا المجال .

والتكامل زيادة على ذلك عملية ارتقائية ، تمر بمستويات تعيِّن درجات متفاوتة فى كفاءة الكائن الحى أو النظام الاجتماعى الذى تتحقق من خلاله . ويتم انتقالها بفضل عمليات التغاير أو الإفراد[٤] التى تخل بالتآزر المتحقق وتتجه نحو تآزر جديد أكثر ارتقاء وكفاءة .

فإذا أردنا أن نتبين الأهمية الخاصة لهذا المعنى المفصَّل لاصطلاح التكامل بالنسبة لبحثنا هذا ، قلنا إنه لا يكفى للإبانة عن الأسس النفسية للتكامل الاجتماعى أن نكشف عن تلك العمليات النفسية الجارية وراء الأنماط أو

---

(١) coordination (٢) differentiation

(٣) process (٤) individuation

المنظمات الاجتماعية القائمة بالفعل ، بل يجب أن نكشف أيضاً عما يمكّن من تغيير هذه الأنماط وتطويرها ، وبعبارة أخرى يجب أن نحسب حساب الجانب التاريخى فى هذه الأنماط ، بحيث تستطيع المفاهيم [١] التى نتقدم بها أن تفسرها من حيث هى مستقرة ومتطورة فى آن واحد .

والواقع أن هذا الفهم لمعنى التكامل هو الذى كان مسيطراً على أندرسون H.H.Anderson فى مقاله المنشور بعنوان « السيطة والسلوك المتكامل فى الحياة الاجتماعية » فهو يقرر أن « عبارة السلوك المتكامل اجتماعياً » تنطبق على الاستجابات التى تتميز بالمرونة ، أى على السلوك الذى يحاول أن يبرز الخلافات القائمة لدى الآخرين ويلتمس بينها أهدافاً مشتركة (H.H. Anderson 1943) . وعلى هذا الأساس نفسه يحصى واردن C.J. Warden من بين الميزات النوعية للحياة الاجتماعية الإنسانية الابتكار إلى جانب التواصل [٢] وتكوين العادات الاجتماعية (P.R. Farnsworth 1942, p. 393 & R.T.Lapiere) وإلى مثل هذا المعنى يذهب الدكتور ى . مراد عندما يقرر أن صفة التكامل تتلخص فى عملية التآزر والتضامن من ناحية ، وفى عملية الائتمار من ناحية أخرى ، أى خضوع بعض المراكز السفلى لسلطة المراكز العليا فى الجهاز العصبى (ى . مراد ١٩٤٨) ، وعندما يحدد مهمة علم النفس التكاملى بأنها تفسير كيفية انتقال الإنسان من طور الفردية البيولوجية إلى طور الشخصية السيكولوجية والاجتماعية (ى . مراد ١٩٤٨) ، فلا يكفى أن نفسر نمط التكامل القائم بل يجب أن يتضمن تفسيرنا انتقال هذا التكامل من نمط إلى نمط آخر من حيث أسبابه وكيفيته . كذلك نتوسم بعض هذا الاهتمام بالجانب التاريخى فى عملية التكامل عند دوركهيم ، وذلك فى تفرقته بين نوعين من التكامل الاجتماعى : أحدهما هو التكامل الآلى ويسود فى المجتمعات البدائية ، وقوامه التشابه بين أعضاء المجتمع تشابهاً يكاد يكون تامًّا ، والآخر هو التكامل العضوى

---

(١) concepts (٢) communication

ويسود فى المجتمعات المتمدينة وقوامه التبادل والتفاعل بين شخصيات المجتمع المتباينة (E. Durkheim 1926) .

والخلاصة أن التكامل الاجتماعى كما سنعرض له فى هذا البحث لا يعنى مجرد التضامن[1] الاجتماعى ، بل يعنى التضامن الذى يسمح بأن يتعدل نمطه من حين إلى آخر ، فهو تضامن دينامى متطور . ولا شك فى أنه يقوم على عوامل متشابكة ، منها الاجتماعى التاريخى والاقتصادى والنفسى والبيولوجى . إلا أننا سنقتصر أساساً على الكشف عن العوامل النفسية ، فإذا عرضنا للعوامل الأخرى فمن حيث تأثيرها فى هذه العوامل النفسية أو تأثرها بها .

وفى هذا الموضع يحسن بنا أن نزيد من توضيح ما نعنى بصفة « النفسية » . فالشائع أن هذا المفهوم مرادف تقريباً لمفهوم « الفردية » (G. Gurvitch 1950, p. 31) ومعنى ذلك أن الحديث عن الأسس النفسية يعنى الحديث عن الأصول الفردية الباطنية ، وبوجه خاص تلك القدرات[2] والاستعدادات[3] الفطرية . إلا أننا لم نقصد إلى هذا المعنى . ذلك أنه مع التسليم بوجود استعدادات فطرية فى الفرد فإن هذه الاستعدادات تبدو فى حدود معلوماتنا الحاضرة من الاتساع بحيث لا يمكن الوقوف عندها لتفسير أشكال السلوك الخاصة كما تصدر عن فرد واحد فى عدة مواقف متباينة ، أو عن عدة أفراد فى موقف واحد . هذا إلى أن الاتجاه العلمى الحديث يمضى إلى تفسير المواقف بالكشف عن الطرق التى تنهجها التفاعلات بين قواها المختلفة ، ولا يكتفى بالكشف عن رصيد الطاقة الذى يمكن من قيام هذه التفاعلات (K. Lewin (a) 1935) أضف إلى ذلك أن تعذر تحديد مضمون فكرتنا عن هذه القدرات والاستعدادات — وهو ناتج عن أننا نجد أنفسنا دائماً بصدد تحقق لهذه القدرات والاستعدادات — يجعل موقفنا ينطوى على

---

(١) solidarity (٢) abilities (٣) aptitudes

تناقض حاد يجب كشفه تمهيداً للتخلص منه . والخطوة الأولى فى هذا السبيل تتمثل فى الإجابة على هذا السؤال : كيف نصل إلى القول بوجود هذه القوى والاستعدادات الفطرية ؟ والجواب أن ذلك يتم عن طريق ملاحظة مظاهر السلوك وتتبع أوجه الشبه والاختلاف بينها . ومعنى ذلك إذا أردنا فعلا أن نسمى الأشياء بأسمائها ، أننا نفسر القدرات والاستعدادات الفطرية عن طريق مظاهر السلوك المتحققة فعلا ، ثم إننا نعود فنحاول تفسير مظاهر السلوك عن طريق القول بوجود هذه القوى . أى أننا ندور فى دائرة مفرغة . والرأى عندنا أن الاستعدادات الفطرية — العضوية والنفسية — يجب عدم الرجوع إليها إلا عندما نكون بصدد التفرقة بين مستويات مختلفة فى السلسلة الحيوانية . أما عندما نكون بصدد تفسير تغيرات السلوك داخل مستوى واحد فيجب أن يكون معظم اهتمامنا محصوراً فى دائرة التفاعلات[1] . وعلى ذلك فسيتجه اهتمامنا أولا وقبل كل شىء إلى هذه التفاعلات التى لا يمكن وصفها بأنها نفسية فقط ولا بأنها اجتماعية فقط بالمعنى التقليدى لهذين المفهومين ، بل هى نفسية اجتماعية تلتقى فى الفرد وتنعكس عليه (G. Gurvitch 1950, p. 31)

بعض مظاهر التكامل الاجتماعى :

لا نقدم جديداً عندما نتكلم الآن — فى منتصف القرن العشرين — عن وحدة المجتمع وتكامله ، فالواقع أن هذه الفكرة قد احتلت مكانتها فى ميدان البحث العلمى منذ أواسط القرن الماضى ، بفضل جهود أوجست كونت A. Comte ثم إميل دوركهيم E. Durkheim وأعضاء المدرسة الاجتماعية الفرنسية بوجه خاص. ولكن لما كانت النظريات العلمية تتأثر بالمناخ الاجتماعى السائد فى محيطها ، فقد جد من الظروف والتغيرات ما يستدعى إعادة تأكيد بعض القضايا

(١) سنعود إلى معالجة هذا الموضوع بشىء من التفصيل فى فصول قادمة .

العامة الرئيسية لدى هؤلاء الباحثين ، وعلى رأسها القضية القائلة بأن المجتمع وحدة متكاملة . ذلك أن جو نمو القوميات الذى كان سائداً فى أوروبا الغربية طوال القرن التاسع عشر ، والذى أتاح لتلك النظريات أن تظهر وتعيش وتنمو ، قد تغير اليوم وأصبح جو ضغط على القوميات ، من خارجها (ويتجلى ذلك فى ضغط الحركات الاستعمارية على بعض المجتمعات) ومن داخلها (ويتجلى ذلك فى صراع الطبقات بوجه خاص) ، مما جعلها عرضة لتوترات عنيفة ، وأبرز الحاجة إلى إعادة تأكيد وحدة المجتمع وتكامله .

١ — والواقع أن ما نشهده من صراع داخل المجتمع لهو نفسه دليل على وحدته . ذلك أن موقف الصراع إذا نظرنا إليه من وجهة نظر دينامية وجدناه يتضمن عدة قوى متنافرة وعدة قوى متجاذبة . ولا يمكن القول بأنه يتضمن عدة قوى متنافرة فحسب ، وإلا لتباعدت العناصر وانتهى الأمر ، ولما ظهر الصراع أصلا . ولكن وجود القوى المتجاذبة مع القوى المتنافرة فى نفس الوقت هو الذى يجعل الموقف موقف صراع (J.F. Brown 1936; K. Lewin 'a' 1935). وعلى هذا الأساس نلاحظ أن براون J.F. Brown فى تصويره الطوبولوجى للمجتمع فى حالة الصراع بين طبقاته يصور لنا الحدود الفاصلة بين الطبقات وقد ازداد سمكها فى حين أن الحدود الكبرى المحيطة بها جميعاً (أى حدود الأمة أو المجتمع الكبير وهى تمثل القوى

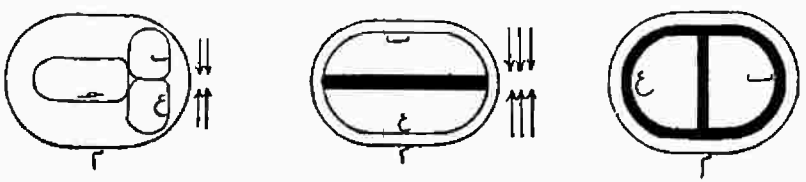

المجتمع فى حالة صراع طبقاته المجتمع فى حالة الثورة المجتمع فى حالة الإضرابات العامة

هذه الأشكال تصور تنظم المجال الاجتماعى فى مواقف صراع الطبقات والثورة والإضرابات العامة . (على أساس غير كمى) .

م = حدود المجتمع . ب = طبقة البورجوازية .

ع = طبقة العمال . حـ = الجمهور غير المنتظم فى عضوية طبقية

واتجاه الأسهم يشير إلى اتجاه الصراع .

الجاذبة المؤلفة قد أصبحت دقيقة ، ولكنه لا يحذفها أبداً ، وحتى عندما يصور لنا المجتمع فى حالة الثورة الطبقية لا يستطيع أن يحذف الحدود الخارجية بل يبقى عليها أيضاً (J.F. Brown 1936, pp. 172-193) .

وقد شرح جاك لندساى J. Lindsay هذه الفكرة نفسها بقوله إن المجتمع وحدة دينامية قائمة على أساس معين ، وإن هذه الوحدة تستمر فعالة فى جميع مراحله التاريخية ، وما نسميه صراع الطبقات إن هو إلا توترات داخل هذه الوحدة تزداد شيئاً فشيئاً حتى تبلغ مرحلة معينة يتحتم فيها قيام اتزانه وتكامله على أساس جديد. كذلك كان ماركس K. Marx يقول « العمال والبورجوازية تناقضان ، ومن حيث إنهما تناقضان فهما يكونان كلا متحداً » ذلك أنهما من نتاج عملية تاريخية واحدة . ومما يؤيد هذه الملاحظة أيضاً ويوضحها ما نشاهده من أن المجتمع إذا تهدده خطر خارجى كالاستعمار مثلا فإن صوت الخلافات الداخلية يخفت ، ويزداد الشعور بوحدة المجتمع وتجانسه أمام هذا الخطر ، مما يدل على أن روابط الوحدة كانت قائمة من قبل لكن تأثيرها كان خافتاً وسط ضجيج التناقضات . وقد أشار براون إلى المضمون الطوبولوجى لهذه الحقيقة بقوله : إن أصوات الصراع الطبقى تخفت عندما يزداد الشعور بالعضوية القومية. كما أن مكدوجل W. McDougall أدخلها فى حسابه عندما كان يحصى من بين الشروط التى من شأنها أن تزيد شدة التكامل الاجتماعى اشتباك المجتمع فى حرب مع مجتمع آخر .

ولزيادة هذه الفكرة إيضاحاً نضرب مثلا بالشخصية العصابية ، فهى تشبه المجتمع المشحون بالتناقضات وضروب الصراع المختلفة ، تسودها التوترات والمنازعات الداخلية ، لكن لهذه التوترات والمنازعات جميعاً دلالة هامة هى أنها دفاع عن

---

(١) national membership-character

(٢) *The Groul Mind* by W. McDougall (Through : *Psychol.* & *The Social Order*", by J.F. Brown; p. 73)

وحدة الشخصية وتكاملها ، ولذلك فإننا نجد المريض يحتفظ ببعض الاستبصار [١] مما يدل على أن الوحدة العميقة للشخصية لا تزال قائمة لم تصب بسوء ، ولا يفقد هذا الاستبصار تماما إلا فى الحالات الذهانية الحادة ، وعندئذ يكاد يختفى كل أثر للصراع الداخلى .

٢ — وثمة مظاهر أخرى للوحدة الاجتماعية ، نذكر من بينها «الطابع الاجتماعى للشخصية » فمن الأقوال الشائعة أن المصرى يغلب عليه الهدوء ، والدعة والميل إلى النكتة والاستقرار ، والفرنسى يمتاز بشحنته الانفعالية الكبيرة وما ينجم عنها من تعبيرات متضخمة سواء فى نبرات الكلام وفى الإشارات والأوضاع المصاحبة له والصينى مسالم (R.T. Lapiere & P.R. Farnsworth 1942, p. 74) ، والألمانى متهور يعبد الدولة ويتحمس لها إلى درجة الجنون (J. Huxley 1943, p. 113) ، إذا تكلم أطلق صوته عالياً حتى وإن جرى حديثه فى جلسة خاصة ، على عكس الأمريكى الذى يتكلم بصوت منخفض نسبياً سواء أكان يوجه حديثه فى جمهور كبير أم كان فى نفر قليل (K. Lewin 'b' 1948) . ولا تصدق هذه الصفات فى حالة المجتمعات المتمدينة فحسب ، بل تصدق أيضاً فى حالة المجتمعات البدائية . وقد أجرت روث بندكت R. Benedict بعض البحوث فى هذا الصدد على أربعة مجتمعات بدائية هى : بعض قبائل الهنود الحمر المقيمين فى السهول ، وقبائل الزونى فى الساحل الجنوبى الغربى ، وقبائل الكواكيوتل فى الساحل الشمالى الغربى ، والدوبوان فى ميلانيزيا . فانتهت إلى أن طراز الشخصية السائد فى كل من هذه المجتمعات على التوالى هو : المهوس [٢] أو الديونيزى Dionysian ، والمعتدل أو الأبوانى Apollonian ، والشخصية التى يغلب عليها جنون العظمة [٣] ، والشخصية التى يغلب عليها الاتجاه الشبيه بالفصامى الهذائى [٤] (J. Gillin 1949; D. Katz & R. Shanck 1947, p. 520) . كذلك أجرى

---

(١) insight
(٢) manic
(٣) megalomanic
(٤) schizoid-paranoid

هالول A.I. Hallowell بحثا ممائلا على جماعتين من جماعات الهنود الحمر ، إحداهما مقيمة بالقرب من الساحل والأخرى بالداخل ، واستخدم فى بحثه هذا اختبار روزشاخ (ا . رمزى ١٩٤٦) فانتهى إلى أن الطراز السائد فى الجماعة الساحلية يغلب عليه الانبساط وأن الطراز السائد فى الجماعة الداخلية يغلب عليه الانطواء [٢] (A.I. Hallowell 1949) كذلك انتهت مارجريت ميد M. Mead إلى تحديد الخطوط الرئيسية للشخصية فى مجتمع الماورى بنيوزيلندة بأنها مزيج من السمات الفردية والاجتماعية يغلب عليه الاتجاه التعاونى ، على عكس الشخصية فى مجتمع الأسكيمو (فى جرينلند) فهى ذات اتجاهات فردية إلى حد كبير ، وذات نظرة واقعية ملحوظة مع فقر شديد فى الخيال .
(D. Katz & R. Shanck 1947, p. 519)

والذى يهمنا من هذه البحوث وأمثالها هو أن هذه الظاهرة ، ظاهرة الطابع الاجتماعى للشخصية تدل دلالة واضحة على أننا بصدد عملية اجتماعية واحدة فى أساسها ، تصنع من الأفراد — وهم شديدو المرونة لا سيما فى بواكير الطفولة (A.I. Hallowell 1949; H.H. Newman 1947; W. Dennis 1947) نماذج بينها بعض أوجه الشبه التى لا يمكن إغفالها ، والتى يمكن أن تفرقهم فى مجموعهم عن أبناء أى مجتمع آخر . ومعنى ذلك أن الحياة الاجتماعية وإن كانت موزعة بين عدة أجهزة أو مؤسسات إلا أن هذه الأجهزة من التماسك السيكولوجى بحيث تلتقى جميعاً فى مصب واحد ، مما يدل على أنها أجزاء فى مشروع واحد هو المجتمع الكبير . وهذا ما استنتجته روث بندكت ، فكان بمثابة أساس متين لإقامة بحوث « الطابع الاجتماعى للشخصية » (G. Gorer 1950) وعلى هذا الأساس نستطيع أن نفهم قول علماء ، الاجتماع بأن عملية التربية عملية اجتماعية وليست عملية فردية يقوم بها المربى مستوحيا فلسفته الخاصة فى الحياة (ع . عزت ١٩٥١ ; K. Lewin 'b' 1942) ولما كان

---

(١) extraversion (٢) introversion

وجودهذا الطراز[1] دليلاعلى وحدة المجتمع فمما لاشك فيه أن استقراره ووضوح معالمه يتأثران بما ينتاب هذه الوحدة من توترات وتمزقات (A. Davis 1943) كما أن مضمونه يتغير بتغير النظم الداخلية التى تستقر عليها الوحدة. (J.F. Brown 1936, p. 126; J. Huxy 1943 p. 113)

٣ — كذلك تعتبر ظاهرة « الرأى العام» مظهرا من مظاهر الوحدة الاجتماعية ، ونتيجة من نتائجها (W. Bauer; A.N. Holcombe 1928; G. King 1928; J. Maisonneuve 1951) وربما كان من أكثر هذه المظاهر حساسية لما يظهر فى المجتمع من توترات وخلافات ؛ ففيه تنعكس هذه التوترات بسرعة واضحة . ولا أدل على ذلك من نتائج الانتخابات البلدية والبرلمانية ، إذ تظهر بداخل المجتمع عدة فئات ذات مصالح مختلفة وآمال وأهداف متعارضة ، ولكن هذه الاختلافات لا تصل إلى الدرجة التى تقضى فيها على الجذور العميقة للوحدة الاجتماعية ، وإلا لما ظلت الوحدة قائمة والاعتماد المتبادل سارياً فى حياة المجتمع الاقتصادية والسياسية والفكرية جميعاً . وقد أوضح بوير W. Bauer هذه الحقيقة فى حديثه عن العوامل التى تؤثر فى تشكيل الرأى العام وتوجيهه ، إذ ذكر من بين هذه العوامل :

١ — المستوى العام للمدنية أو الحضارة .

٢ — الأدوات الحضارية الشائعة الاستعمال للتعبير فى مرحلة معينة .

٣ — الخصائص القومية التى تمتاز بها الجماعة .

وبدهى أن آثار هذه العوامل تعم جميع الفئات المختلفة داخل المجتمع الواحد ، وبالتالى فهى تعمل على التوحيد والربط بينها فى مقابل العوامل التى تعمل على إثارة الفرقة والخلاف (R. Thouless 1939; A. Davis 1943) ،

---

(١) يعقد أيزنك H.J. Eysenck فصلا فى كتابه "Uses & Abuses of Psychology" 1953 (ص ٢٤٣ — ٢٦٠) يقرر فيه أن البحوث فى موضوع الطابع القومى للشخصية لم تقم بعد على أسس علمية متينة ، لكنه لا يرفض هذا المفهوم . ويشير إلى الطرق العلمية الدقيقة التى يمكن سلوكها نحو بحثه وإكسابه مضمونه .

ولذلك يلاحظ الباحث الاجتماعى المدقق أن هناك أحكاماً وآراء حول بعض شئون الحياة الشخصية والاجتماعية والكون والقدر تظل سائدة لدى الجميع رغم اختلافاتهم المهنية والطبقية . ويمكن القول بوجه عام بأن البناء الفكرى السائد لدى أعضاء المجتمع يتألف من مناطق محيطية سريعة التأثر بما ينتاب أنماط حياتهم من تغيرات ، ومناطق أخرى مركزية شديدة المقاومة للتغير ، فلا تصل إليها إلا آثار التغيرات العنيفة التى تعتبر أساس اتزان الوحدة الاجتماعية كلها . وتعتبر الفنون الشعبية على اختلافها (وخاصة الألوان الأدبية منها) من أهم جوانب هذا البناء وأكثرها وضوحاً ، إذ تتضمن « أحكام القيم » التى تصدرها الأغلبية فى كثير مما يعرض لها ، وتكون بمثابة العملة المعترف بها لدى هذه الأغلبية . وقد فطن كبار الفنانين إلى هذه الحقيقة فجعلوا هذه الآثار الفنية الشعبية هى المصدر الأول لإلهامهم ، وهكذا استلهم إسخيلوس وسوفوكليز قصص هوميروس ، واستلهم شكسبير الكثير من القصص الشعبى الشائع فى مجتمعه ، وكذلك جوته وسائر الفنانين الكبار ، فضمنوا لأعمالهم الذيوع والبقاء .

٤ — ويمكننا أن نضيف إلى الأمثلة الثلاثة السابقة أمثلة أخرى لعدة مظاهر تدل دلالة واضحة على قيام الوحدة الاجتماعية ، كوحدة اللغة ووحدة التقاليد والعادات . لكن هذه الأمثلة أصبحت من شدة الوضوح بحيث لا نرى ما يدعو إلى إسهاب القول فيها . ونكتفى بأن نضيف مثالا واحداً من حياة المجتمعات البدائية لما له من أهمية خاصة .

يلقى تومسون G. Thomson السؤال التالى : ماذا يحدث عندما يقتل المرء أحد أفراد عشيرته؟ ثم يجيب قائلا : يُلعن ويطرد خارج العشيرة ، وبذلك يصبح خليعاً فلا يعود عضوا فى المجتمع (G. Thomson 1950, p. 34). ويقول برستيانى J.G. Peristiany فى أثناء حديثه عن مجتمع الكبسيجيس إنه يكفى لإرغام الفرد على الخضوع لأحد أوامر القبيلة التهديد باللعنة الجماعية (J.G. Peristian 1939, p.5) والنقطة التى نريد أن نوضحها فى هذين المثالين هى شعور المجتمع

البدائى بحدوده بحيث تكون الدلالة الدينامية لطقوس اللعنة هى إخراج الملعون خارج هذه الحدود .

وهناك طقوس أخرى تجرى فى مناسبات مختلفة تبرز أيضاً هذا الشعور بالحدود، ولكن بطريقة مضادة : ومن أهم هذه الطقوس تلقين الأسرار[١] وفى ذلك يقول برستيانى إن ما يجعل لتلقين الأسرار هذه الأهمية الكبرى لدى الكبسجيس هو الختان والطقوس السرية التى يتلقاها الشباب سويا ، مما يجعلهم يشعرون بأنهم يشاركون فى خبرات ومعارف بأشياء لا يدركها الغرباء ، وبذلك ينهض لديهم الشعور بالوحدة والانسجام القبلى (J.G. Peristiany 1939, p. 27) .

ويرى بعض الباحثين أن ظاهرة « أكل لحوم البشر » أو التنمية[٢] لدى بعض الشعوب البدائية تمارس فى بعض الحالات كتعبير عن الوحدة والتقارب الاجتماعيين (W.G. Sumner 1930) . ويذكر لوسيان ليڤى بريل L.L. Bruhl أن الشعور بهذه الوحدة وهذا التقارب يكون بارزا بشكل ملحوظ لدى بعض القبائل، قبائل البانتو مثلا، إذ تعتبر أمواتها أعضاء فيها ، وبهذا الاعتبار تجرى عليهم طقوس الموت ، وعلى العكس من ذلك لا تجرى هذه الطقوس على جثة الميت الغريب (L.L. Bruhl 1930). ويبدو أن هذا التعبير عن الوحدة كان قائماً فى اليونان القديمة . ولذلك تقرر عدم إجراء طقوس الموتى على بولينيكيز ، أخى أنتيجونا ، لاتهامه بالخيانة العظمى (سوفوكليز) . كذلك جرت العادة فى أثينا قديماً بتقديم الفتيان إذا ما بلغوا سنا معينة تقديما رسمياً إلى العشيرة التى ينتمى إليها آباؤهم ، وتعقد لذلك وليمة خاصة تعرف باسم أباتوريا Apatouria أى وليمة الرجال أبناء العشيرة الواحدة . وكانت تجرى فى أثينا أيضاً طقوس أخرى لها تلك الدلالة نفسها، فعندما كان أحد الأشخاص يعود إلى مسقط رأسه بعد أن يشاع عنه أنه مات ويبكيه أهله ، كانت العادة تقضى بأن يعاد إدخاله

---

(١) initiation

(٢) cannibalism

فى مجتمعه بوساطة حفل تقليدى يتألف أساساً من محاكاة للميلاد ، وكان هذا الشخص يوصف بأنهdeuteropotmos أى الشخص الذى تلقى نصيبه فى الحياة للمرة الثانية . (G. Thomson 1950, P P. 28, 50) .

وفى هذه الأمثلة عن الطقوس الخاصة « بعبور الحدود » نستطيع أن نرى أثراً واضحاً من آثار الوحدة الاجتماعية . ولا شك أن الظروف المحيطة بالمجتمعات البدائية هى التى تتيح لأعضائها الشعور بالوحدة على هذا النحو من البروز ، ومن هذه الظروف حجمها الصغير نسبياً ، ونمط حياتها ، ودرجة ارتقائها . إلا أن التطور الاجتماعى لايعنى بطبيعته فقدان الوحدة ولا تخلخلها ، لكنه يعنى ازدياد تعقدها نتيجة لازدياد التغاير بداخلها . وهذا التعقد هو ما يضفى الغموض على الوحدة (F.C. Bartlett 1923) .

على أننا سواء انتقينا أمثلتنا من المجتمع البدائى أم من المجتمع الحديث أم من المجتمع فى أية مرحلة من مراحل الارتقاء المتوسطة فسنجد الأدلة المتعددة على قيام الوحدة وظهور آثارها ، لكننا سنجد كذلك كثيراً من الأدلة على قيام الاختلافات داخل هذه الوحدة ، وسنجد الأدلة على أن هذه الاختلافات تزداد أحياناً حتى لتبدو خطراً يتهدد التكامل الأساسى ، وذلك فى فترات الانتقال الكبرى . ويبدو بوجه عام أن المجتمعات المتمدينة أكثر تعرضاً لأزمات التكامل من المجتمعات البدائية ، وكأن هناك تناقضاً حاداً فى داخل هذا التكامل بين عوامل التضامن والتعاون من ناحية وبين عوامل الارتقاء والتغاير من ناحية أخرى . وهذا بالضبط هو التشخيص الذى وضعه برجسون للأزمة الراهنة فى مجتمعات الحضارة الغربية ، ووضع الخطوط الرئيسية لحلها بإعادة تنظيم تلك المجتمعات على أساس نمط الحياة البدائية . (م . سويف ١٩٤٩ ; H. Bergson 1932) .

والسؤال الآن هو : هل يوجد فعلا هذا التناقض بين عوامل التعاون وعوامل الارتقاء ؟ ولكى نجيب على هذا السؤال نبين كيف تتم عملية التكامل

الاجتماعى ، وكيف تتم فى أنماط بسيطة أحياناً وفى أنماط أشد تعقداً أحياناً أخرى ، وما هى العوائق التى تصادفها أحياناً وكيف يمكن التغلب عليها .

والبحث الذى نحن بصدده إنما هو محاولة للإجابة على هذه الأسئلة — فى حدود تخصصنا . وسيتضح فى النهاية أن التناقض الذى توهمه برجسون لا وجود له إلا بشكل مؤقت يمكن التغلب عليه ، مع الاحتفاظ بالثمرات الكبرى للارتقاء ، وهى : التعاون والتغاير ، أو التنظيم والحرية .

الفصل الأول

التكامل الاجتماعى فى التجمعات تحت البشرية

ليست الحياة الاجتماعية وقفاً على الإنسان (C.J. Herrick 1949) ، وإن كان هذا لا يمنع من القول بأن حياة الإنسان الاجتماعية بما لها من مطاوعة شديدة وتعقد بالغ وقف عليه . وهذا بالضبط ما يقرره آلى W.C. Allee ويركيز R. Yerkes، ولذلك يفضلان استخدام كلمة التجمعات[1] الحيوانية، مفردين مفهوم المجتمع للإشارة إلى الجماعة البشرية . والنتيجة التى نرتبها على ذلك أن التكامل الاجتماعى ظاهرة كبقية ظواهر الحياة ، تتطور بتطور الأنوع الحية ، وتظهر بمظاهر مختلفة فى المستويات المختلفة من هذا التطور . ومن بين مظاهرها هذا المظهر الإنسانى الذى يختلف اختلافاً كيفياً عن جميع مظاهرها فى المستويات التطورية السابقة .

من هنا يتحتم علينا ونحن نقوم بهذا البحث فى « الأسس النفسية للتكامل الاجتماعى » أن نقدم لبحثنا بدراسة فيلوجينية لأسس[2] التكامل الاجتماعى (شروطه وديناميا ته) فى الجماعات الحيوانية ، وإلا كان هذا البحث مبتوراً، وإلا كنا كعالم الحيوان الذى يهتم بدراسة الحيوانات الراقية دون الحيوانات الدنيا ، أو كعالم النبات الذى يهتم بدراسة النباتات الزهرية دون أن يلقى بالا إلى الطحالب والفطريات . والنتيجة الأخيرة أننا لن نفهم الدلالة البيولوجية للحياة الاجتماعية ، وبالتالى فسينتهى أمرنا إلى أن نقضى على كل صلة بين السلوك الاجتماعى والحياة بمعناها البيولوجى .

---

(١) associations

(٢) phylogenetic

وقد قسم مرسيل برنان M. Prenant المستويات التطورية الكبرى للحياة الاجتماعية تحت البشرية إلى أربعة مستويات ، هى :

١ — مستوى التجمعات التى تحدث بفعل مؤثر خارجى ، وتزول بزواله . مثال ذلك ما نشهده من تجمع الفراشات حول المصباح المضىء . ومن أهم مميزات هذه التجمعات انخفاض درجة استقرارها ، وعدم تغير سلوك أفرادها فى داخلها عما كان عليه فى خارجها .

٢ — مستوى التجمعات التى تتآزر فيها حركات الأفراد دون أن يشترکوا فى القيام بعمل واحد . ويلاحظ هذا فى أرجال الجراد وفى كثير من الطيور المهاجرة كالخطاف (١) والسمان (٢) . وفى هذه الجماعات يبدو تواقت (٣) الحركات بشكل ملحوظ . إلا أن هذا التواقت يقوم فى مستوى يختلف تماماً عن المستوى الذى يقوم فيه تواقت حركات العمال فى أحد المصانع ، فليس بين التواقتين سوى تشابه شكلى فحسب .

٣ — مستوى التجمعات التى يشترك أفرادها معاً فى القيام ببعض الأعمال الجمعية . من هذا القبيل جماعات الحارود (٤) ، فهى تبنى أكواخها بالقرب من مجارى المياه . وتستعين بالعمل الجمعى فى إقامة خزان للمياه تحت قريتها (التى تتألف من مجموعة أكواخ متجاورة) يرفع منسوب المياه إلى مستوى معين . ومن هذا القبيل أيضاً جماعات النسوط (٥) ، فهذه طيور تنسج أعشاشها متلاصقة ثم تقيم فوقها سقفاً مشتركاً . كذلك تدخل فى هذه الفئة جماعات النمل والنحل .

٤ — وأخيراً هناك تجمعات الثدييات ، وتظهر فيها ظاهرة جديدة لاتتوفر فى الجماعات سالفة الذكر ، ألا وهى أن لها حكاماً فعليين يمارسون

---

(١) swallow (٢) quail

(٣) syncronisation (٤) beavers حيوان قارض يربى فى (شرف)

(٥) weaver-birds

سلطة فعلية على سائر أفراد الجماعة ، وهذه بوادر التنظيم الداخلى .

والفكرتان الرئيسيتان اللتان يجعلهما برنان فى تقسيمه هذا مقياساً للارتقاء هما الاستقرار والتنظيم[١] الداخلى . فى أدنى المراتب التجمعات العابرة ، وليس لهذه التجمعات من التكامل الاجتماعى سوى المظهر . وفى أعلى المراتب التجمعات المستقرة ذات التنظيم الداخلى ، كجماعات النسانيس النابحة والبابون والشمبانزية . وهذه الجماعات على درجة من التكامل الاجتماعى لا يمكن إنكارها . فالتجمع فيها قائم بغض النظر عن كثير من العوامل الفيزيقية فى بيئتها ، وبذور التغاير واضحة فى هذا التنظيم الداخلى للعلاقات بين أفرادها . ويتفق آلى W.C. Allee مع برنان فى اتخاذ هاتين الفكرتين أساساً للتقسيم التطورى للحياة الاجتماعية (W.C. Allee 1935) .

هذه النظرة التطورية إلى الموضوع هى السبيل الأوحد إلى تحاشى التورط فى أحد تطرفين كلاهما لا تبرره الوقائع . فهناك من ناحية بعض الباحثين الذين يرون فى بعض التجمعات تحت البشرية صورة دقيقة للمجتمع الإنسانى (A. Manhattan 1951) ، ومن ناحية أخرى باحثون يرون فى الحياة الاجتماعية ميزة إنسانية خالصة . وكلا النظرتين لا تبررها الوقائع . فالجماعات تحت البشرية فى أرقى مستوياتها — تجمعات النسانيس النابحة والبابون والشمبانزية — لا تتوفر فيها بحال من الأحوال هذه الدرجة من التغاير والتعقد التى نشهدها فى الجماعات البشرية حتى البدائية منها (T.C. Schneirla 1941) ويكفى أن نذكر هذا الفارق الهام بين جميع التجمعات تحت البشرية وبين المجتمع البشرى ، وهو أن نمط[٢] التنظيم الاجتماعى فى أى تجمع تحت بشرى نمط متحجر إلى حد بعيد ، لا يكاد يتطور دون أن يصحبه تطور بيولوجى ينتاب أفراد التجمع ، أو تغير ينتاب البيئة الفيزيقية التى يحيا فيها التجمع ، فهو إذن مرتبط بالخصائص البيولوجية للفصيلة أو النوع[٣] ، أو مرتبط بخصائص البيئة الطبيعية المحيطة .

(١) organization (٢) pattern (٣) species

وهكذا لا نجد فى الجماعات المختلفة التابعة لنوع واحد والتى تحيا فى بيئة طبيعية واحدةعدة أنماط للتنظيم الاجتماعى بل نجد نمطاً واحداً. وعلى الضد من ذلك ما نشهده فى المجتمع البشرى ، فنمطه قد تغير وتطور فى أنظمة متعددة منذ المجتمع البدائى حتى المجتمع الحديث ، ولم يحدث تطور يوازيه فى الخصائص البيولوجية للنوع ، كما أن السلالات [1] البشرية المختلفة تحيا فى أنظمة متشابهة فى كثير من الأحيان . أضف إلى ذلك أن كثيراً من المجتمعات البشرية قد تطورت فى حياتها الاجتماعية مارة بكثير من النظم أو الأنماط دون أن يكون ذلك مصحوباً بأى تغير يذكر فى بيئتها الطبيعية . وبعبارة أخرى ليس ثمة ارتباط بين الخصائص البيولوجية للسلالة وبين نمط الحياة الاجتماعية القائم ، أو بينه وبين خصائص البيئة الطبيعية (وفيما يتعلق بهذه الحقيقة الأخيرة يلاحظ أنها تزداد وضوحاً كلما تقدم المجتمع وازداد ارتقاء) .

هذه الحقيقة ، لا سيما شطرها الأول ، على جانب كبير من الأهمية ، وسنرى أنها جوهر إنسانية الإنسان ، فهى ترتبط ارتباط جوهرياً بمرتبته العليا فى سلم التطور من حيث إنها عنوان قدرته الكبيرة على التكيف مع بيئات متباينة تبايناً شاسعا ، وتدل دلالة واضحة على ما تمتاز به الطبيعة البشرية من مطاوعة شديدة لا تتوفر فى أى مستوى من مستويات التطور تحت البشرية . وتلك حقيقة تتفق تماماً مع الحقيقة السيكولوجية التى يجمع عليها علماء النفس ، والتى تقرر أن نطاق الاكتساب ضئيل جداً فى سلوك الحيوان إذا ما قورن بنطاقه فى سلوك الإنسان (ى . مراد ١٩٤٣ ص ١١٣) . والفرق بينهما من الضخامة بحيث يحتم وضع الإنسان فى مستوى تطورى فريد . وقد عبر أمرسون A.E. Emerson عن ذلك تعبيراً طريفاً بقوله : لما كان الأفراد فى الجماعة البشرية يستطيعون أن يعتدوا على النظم الاجتماعية القائمة فقد وجدت الجماعة البشرية

---

(١) races ويمكن الرجوع فى هذا الصدد إلى كتاب :

Klineberg, O. *Race & Psychology* Paris, Unesco, 1951.

نفسها فى حاجة إلى إقامة عدة أجهزة تشريعية وتنفيذية وقضائية لضبط السلوك الاجتماعى بداخلها ، أما الحشرات الاجتماعية فليس لديها هذه الأجهزة لسبب بسيط هو أنها تكاد تكون اجتماعية بالفطرة . (O.E. Plath 1935) .

على أن التطرف المضاد الذى يمضى إلى حد القول بعدم وجود أية حياة اجتماعية تحت بشرية تطرف تدحضه عدة وقائع كذلك . فتجمّع عدد من الأفراد وحياتهم معاً لفترة قصيرة أو طويلة ظاهرة شائعة فى السلسلة الحيوانية لدى كثير من الحشرات والأسماك والطيور والثدييات (F. Alverdes 1935; S. Freud 1940; C.J. Herrick 1949; M.F.A. Montagu 1947) ولانستطيع إغفال هذه الظاهرة لاسيما وأنها ليست غالباً نتيجة لمؤثرات فيزيقية من بيئة الحيوان ، ومن المحقق أن إغفالنا إياها سوف يجعلنا عاجزين عن إدراك الفرق بين سلوك الحيوانات الاجتماعية وسلوك الحيوانات الانعزالية ، كما أنه سيجعلنا عاجزين أيضاً عن إدراك خصائص سلوك الحيوانات التى تتجمع فى بعض الفصول وتتفرق فى بعضها الآخر ، والفرق بين سلوكها فى فصول التجمع وسلوكها فى فصول التفرق. وبوجه عام سنتورط عندئذ فى مثل ما تورط فيه بعض دارسى السلوك الإنسانى الذين اعتبروا الفرد وحدة سلوكية قائمة بذاتها ، وأغفلوا علاقاته بجوانب البيئة الخارجية المختلفة ، وكأنه نظام من الطاقة مغلق . والواقع أن هناك جوانب من السلوك الحيوانى لا يمكن تفسيرها إلا من خلال سلوك الحيوانات الأخرى التى تقوم بمثابة جزء من بيئته (R.M. Yerkes & A.W. Yerkes 1935) .

فمن الحقائق الهامة أن هذه الحيوانات فى تجمعها لا تكون بمثابة كائنات متجاورة فحسب ، بل إنها لتتفاعل فيما بينها أيضاً ، ويتجلى أثر ذلك فيما يطرأ على سلوك الأفراد من تغيرات . ومن أوضح الأمثلة على ذلك ظاهرة «تدرج السيطرة» الملحوظة لدى الطيور والثدييات ؛ فمجموعة الطيور أو الثدييات التى تعيش معاً تنتظم علاقات الأفراد فيها فى صورة نظام للسيطرة يتدرج من أشد الأفراد سيطرة إلى أكثرها خضوعاً ، ويكون لهذا النظام درجة

واضحة من الاستقرار ، ويبدو أثره أكثر ما يبدو فى أوقات تناول الطعام ، فإن أكثر الأفراد سيطرة ينال أكبر قدر من الطعام وأكثرها خضوعاً ينال أقل نصيب . على أن ترتيب الحيوان فى سلم السيطرة يؤثر فى جميع جوانب سلوكه الأخرى ، وقد أجرى جيمس W.T. James دراسات تجريبية فى هذه الظاهرة عند الجراء ، فانتهى إلى أن تأثير السيطرة قد يصل إلى درجة أن الجرو الخاضع يتوقف لديه سيل اللعاب بمجرد ظهور الجرو المسيطر فى مجاله ، كما أنه فى العملية الجنسية تعطى المكانة الممتازة للجرو المسيطر (W.T. James 1949) كذلك أجرى واردن وجولت C.J. Warden & W. Galt دراسات فى هذه الظاهرة نفسها لدى النسانيس ، فلاحظا أن مجرد ظهور الحيوان المسيطر على مرأى من الخاضع مع قيام الحواجز المادية التى من شأنها أن تمنع وصول الأول إلى الثانى من شأنه أن يجعل الأخير يستمر فى سلوكه الخضوعى فيخشى الاقتراب من الطعام ويمتنع عن التقاطه ، كما لاحظا أن السبق فى الفرار من قفص التجربة يكون من نصيب الحيوان المسيطر أولا بمجرد إتاحة الفرصة لذلك . وأجرى شلدرب إيبه Schjelderup Ebbe وآلى W.C. Allee وبيمان Beeman ونوليس V. Nowlis دراسات متعددة على الدجاج والجرذان البيضاء والشمبانزية (S. Ross & J.G. Ross 'a' 1949) لا تدع مجالا للشك فى هذه الظاهرة وتكشف عن كثير من جوانبها .

ومن الأمثلة الواضحة كذلك على أن التجمعات الحيوانية ليست مجرد مجاميع من وحدات متجاورة منعزلة ، بل هى وحدة دينامية تتخللها التفاعلات بين مناطقها غير المتجانسة ، ظاهرة « التنشيط أو التيسير الاجتماعى »[1] ومؤداها أن المظاهر السلوكية المختلفة لدى الكائن تزداد شدتها عندما يكون وسط جماعة تمارس هذا السلوك. وقد لاحظ روس S. Ross وروس J.G. Ross فى دراستهما التجريبية على تناول الطعام لدى الجراء أن وجود الجرو الشبعان فى حضرة جراء أخرى جوعانة مقبلة على الأكل بنشاط من شأنه أن يدفعه إلى

(١) social facilitation

الاستزادة من الطعام رغم شبعه ، ووجدا أن مقدار الزيادة التى كان يتناولها الجرو الشبعان حينئذ كان يتراوح بين ٣٠ ٪ و ٢٠٠ ٪ من مقدار الوجبة التى أشبعته ، كذلك لاحظا أن الجرو الذى يأكل مع جماعة من الجراء يتناول كمية من الطعام أكثر من تلك التى يتناولها وهو منعزل ، وتتراوح الزيادة بين ٣٪ و ٨٦٪ (S. Ross & J.G. Ross 'b' 1949) . كذلك لاحظ باير E. Bayer وجود هذه الظاهرة لدى الدجاج ، كما لاحظ هارلو و يودين H.F. Harlow & H.C. Yudin وجودها عند بعض أنواع الجرذان (S. Ross & J.G. Ross 'a' 1949) والنسانيس ، ولا جدال فى أن هذه الظاهرة تنطوى على بوادر عاملى المحاكاة والمنافسة . وقد ذكر آلى بضع تجارب أجريت للتحقق من وجود هذه الظاهرة فيما يتعلق بسرعة التعلم لدى أفراد السمك ، تبين منها أن ازدياد كثافة التجمع السمكى — إلى حدما — يصحبه ازدياد سرعة التعلم لدى أفراده (W.C. Allee 1935) ، كما قرر ألفردس F. Alverdes بضع ملاحظات على سلوك الخيول والخنازير المستأنسة والذئاب تثبت ازدياد شدة أفعالها العادية داخل الجماعة . (F. Alverdes 1935) .

وثمة مثال ثالث يدل على مدى أهمية عامل « علاقة الفرد بالآخرين » فى تفسير الكثير من جوانب السلوك الحيوانى ، ونعنى به ظاهرة «التمرين» التى بمقتضاها يكتسب الوليد بعض خصائص سلوك الأم ، وأحياناً الأب كذلك . ومعنى ذلك أن هناك نوعاً من نقل التراث الاجتماعى بين الأجيال المتعاقبة لدى الحيوان (R.T. Lapiere & P.R. Farnsworth 1942, p. 43) وتلك هى البذور الأولى التى تنتج فى المستوى الإنسانى ظاهرة الحضارة التى لا وجود لها فى المستوى الحيوانى . فقد حدثنا سكوت W.E.D, Scott منذ أواخر القرن الماضى بأن تغريد صغار الصفاريات التى تنشأ بين الكبار يختلف عن تغريد تلك التى تنشأ نشأة منعزلة (G. Murphy & others 1937 P.20) كذلك يحدثنا شنيرلا T.C. Schneirla عن تغيرات هامة تنتاب سلوك صغار النمل خلال الأيام القليلة التالية للفقس ، وهى تغيرات يتأخر ظهورها إذا ما بدأت الصغار حياتها فى جماعات لاتضم فعلة مدربين ، ويقول — تعليقاً على ذلك — إن هذه الظاهرة وغيرها تنطوى على تعلم تتسع دائرته إلى جانب العوامل

الفطرية التى لا شك فى وجودها. وتدل بحوث فون فريش K. von Frisch على وجود الاكتساب الاجتماعى لدى النحل أيضاً (T.C. Schneirla 1941) ويرى بلاث O.E. Plath أن ظاهرة العلاقة بين الأم والصغار لدى الحشرات تنتظم فى مستويات ارتقائية تبدأ بمستوى الأنثى التى تضع بيضها دون أن تلقى إليه بأية عناية، وتنتهى بمستوى الأنثى التى تفارق الصغار والتى تساهم بنصيب واضح فى تشكيل سلوكهم (O.E. Plath 1935). وتبدو هذه الظاهرة بشكل أوضح فى حالة الثدييات، وهذا ماتبينه تجربة كو Z.Y Kuo للكشف عن حقيقة السلوك العدوانى الذى تبديه القطط نحو الجرذان، وقد انتهى من هذه التجربة إلى أن هذا السلوك مكتسب تكتسبه صغار القطط من كبارها، حتى إن الصغار التى نشأها تنشئة منعزلة عن الكبار وفى صحبة دائمة مع الجرذان منذ الصغر لم تبد منها أية بادرة من بوادر السلوك العدوانى نحو الجرذان عندما شبت (Z. Y. Kuo 1938). وفى الثدييات العليا كالشمبانزية تبدو هذه الظاهرة بأوضح مظاهرها وبصورة لا يمكن إغفالها، فالوليد الشمبانزى يكون عند ولادته عاجزاً إلى حد كبير بحيث إذا ترك وشأنه فإنه يهلك، وتظل مدة اعتماده على أمه وتعلقه بها ورعايتها له حوالى ثلاث سنوات، يلقى فى أثنائها التدريب على المشى والتسلق ابتداء من الفترة التى تتراوح ما بين الشهر الثالث والشهر الخامس من عمره. وتقاوم الأم فى البدء المحاولات الأولى من جانب الصغير للحركة المستقلة، ثم لا تلبث أن توجهها وتيسرها بطرق أمكن تسجيلها بالتصوير السينما توجرافى، هذا إلى أنها تقدم إليه الغذاء والحماية وتعدله فراش نومه من الأغصان وورق الشجر. ويقول يركيز R.M. Yerkes فى هذا الصدد: يجب ألا ننفر هنا من استعمال كلمات التربية والتعليم والتدريب لمجرد أننا فى مستوى دون المستوى الإنسانى، بل يجب أن نستعمل هذه الكلمات، إذ أن جميع الظواهر تدل على أن أنثى الشمبانزى تقصد فعلا إلى تشجيع وليدها ومساعدته على الاستقلال الحركى، بل إننا لنشهد مظاهر التمرين المنظم للوليد تقوم به الأم بعضاً من الوقت أثناء

السنة الأولى من العمر. (R.M. Yerkes & A.W. Yerkes 1935) .

هذه الأمثلة الثلاثة لظواهر السيطرة والتيسير الاجتماعى واكتساب بعض عادات الآخرين تدل دلالة واضحة على أن التكامل الاجتماعى ليس وليد المستوى الإنسانى وحده ، لكن جذوره تمتد إلى أعمق من هذا المستوى بكثير ، بحيث يتحتم علينا أن ننظر إليه كوظيفة بيولوجية ترتبط فى ظهورها وتطورها ببلوغ الحياة مستويات تطورية معينة . ولم يغر بعض الباحثين بإغفال هذه الحقيقة الهامة إلا استمرار النظر إلى السلوك الاجتماعى الإنسانى والقياس عليه . ونظراً لما ينطوى عليه هذا السلوك من تعقد هائل ومطاوعة تفوق كثيراً مطاوعة السلوك الحيوانى ، بدا هذا الأخير وكأنه نتيجة مباشرة لحوافز فطرية لا يتطرق إليها التعديل نتيجة لسلوك الآخرين . هذا بالإضافة إلى بعض الأسباب المنهجية كالاقتصار على الملاحظة دون التجريب . لكن هذه النظرة لا يبررها إلا اتساع المسافة بين السلوكين والإصرار على النظر إلى السلوك الحيوانى عبرها . غير أن الاقتراب من مجالات هذا السلوك والتأمل فى دقائقه من شأنه أن يكشف عن درجة من « التفاعل الاجتماعى » فى مستويات أدنى من مستوى الحياة الإنسانية ، مما يضيف دليلا جديداً على أن الفرق بين سلوك الحيوان وسلوك الإنسان فرق فى مستوى التطور لا فرق فى الطبيعة .

على أن هذا القول لا يعنى بأية حال أن المسافة ضئيلة ، وأنها يمكن عبورها بعمليات تربوية معينة . فمن الحقائق الهامة أن بعض ظواهر الحياة الاجتماعية الإنسانية لا وجود لها فى حياة التجمعات الحيوانية حتى فى أرقى مستوياتها . مثال ذلك ظاهرة التعاون [1] بين الراشدين وظاهرة اللغة . وقد حاول واردن وجولت J.Warden & W. Galt تعليم ثلاثة أزواج من النسانيس التعاون فيما بينها على أساس أن يتعاون الفردان فى كل زوج على جذب صندوق ثقيل توجد عليه كمية من الطعام ، فلم يفلحا (C.J. Warden & W. Galt 1943) . ولا تعتبر تجارب

(١) cooperation

كروفورد M.P.Crawford على الشمبانزيتين بمبا وبولا أكثر توفيقاً من ذلك، إذ أن سلوك الاثنتين نحو بعضهما البعض كان متحجراً بشكل واضح. فعندما كان الطعام يوضع فى القسم المخصص لبولا من القفص كانت بمبا تحاول دائماً أن تخطفه بالقوة ، فتنفذ يدها من السياج الفاصل وتحاول اختطافه من يد بولا أو من فمها .وعندما كان يوضع فى القسم الخاص ببمبا كانت بولا تتوسل دائماً فتمد ذراعها وتبسط يدها على الطريقة الإنسانية (M.P. Crawford 1941) ولما كان السلوك التعاونى ينطوى أولا وقبل كل شىء على درجة واضحة من المرونة تتجلى فى قدرة الفرد على تفهم سلوك الغير (M. Parten 1943) وفى قدرته على تغيير سلوكه تبعاً لمواقف الآخرين (R. Benedict 1951) وفى استعداده للعمل على التوافق مع الغير (R.T. Lapiere & P.R. Farnsworth 1942 p. 293) فإننا لا نستطيع أن نقر بوجود سلوك تعاونى بين بمبا وبولا ، ولا يكفى ظهور سلوك « الإهابة والتوسل » عند بولا لكى نقرر أنها كانت تسلك سلوكاً تعاونياً ، ويكفى أن نقارن بينه وبين سلوكنا عندما نطلب إلى أحد زملائنا خدمة معينة ونلقى منه الرفض ، فإننا عندئذ لا نظل نطلب بنفس الطريقة بل نتحول إلى أساليب أخرى كاللوم أو الإغراء أو غيرهما . وربما كان من أطرف الدراسات فى هذا الموضوع الدراسة التجريبية التى قام بها كيلوج L.A. Kellog وكيلوج W.N. Kellog ويسَّرا فيها البيئة الإنسانية المتمدينة للشمبانزية الصغيرة جوا Gua منذ بلغت الشهر السابع من عمرها ، وقدما لها كل ما كانا يقدمان إلى طفلهما من ضروب المعاملة الإنسانية . لكنهما بعد أكثر من سنة لم يفلحا فى إكسابها كثيراً من جوانب السلوك الاجتماعى فى صورته الإنسانية وأهمها اللغة (W.N. Kellog & L.A. Kellog. 1936)

---

(١) Flexibility

(٢) يروى هايز وهايز Hayes & Hayes وهما يعملان بمعامل يركيز Yerkes للبحوث البيولوجية الخاصة بالثدييات العليا :

أنهما قاما باحتضان شمبانزية صغيرة بعد ميلادها ببضعة أيام ، وذلك فى منزلها . ولم يكن مع الشمبانزية فيكى « Viki » أى طفل بشرى لمدة ثلاثة أعوام . (بعكس الحال فى تجربة كيلوج (W.N. Kellog) . ومن أهم الملاحظات التى يقررها الباحثان :

كذلك لا يعنى هذا القول إمكان فهم التكامل الاجتماعى فى المستوى الإنسانى وتفسره فى حدود العمليات والمفاهيم المفسرة للتكامل الاجتماعى فى المستويات تحت البشرية ، ولا فهم هذا الأخير فى حدود العمليات والمفاهيم المفسرة للأول . وهذا بالضبط ما نعنيه عندما نقول إن هذه الظاهرة تختلف اختلافاً كيفياً فى المستوى الإنسانى عنها فى المستويات السابقة عليه . وفى ذلك يقول نوفيكوف A.B. Novikoff : لكل مستوى من مستويات التنظيم خصائص بنائية وسلوكية فريدة ، تعتمد على خصائص العناصر التى تؤلفها ، لكنها لاتظهر إلا عندما تأتلف هذه العناصر فى النظام الجديد . والقوانين التى تصف الخصائص الفريدة لكل مستوى قوانين مختلفة اختلافاً كيفياً فيما بينها ويتطلب اكتشافها استخدام مناهج فى البحث والتحليل تلائم كل مستوى على حدة (C.J. Herrick 1949) هذه الحقيقة على جانب كبير من الأهمية بحيث تجب مراعاتها فى تفسيرنا للظواهر الاجتماعية من أعقدها إلى أقلها تعقيداً. فتطور المجتمع البشرى وأساليب الإنتاج وتقسيم العمل وصراع الطبقات واللغة والتعاطف والصداقة جميعاً لا يمكن تفسيرها بمجرد الرجوع إلى العمليات الداخلة فى بناء العش أو فى ظاهرة السيطرة أو التنبيهات اللمسية المتبادلة ، بل لا بد من صياغة القوانين الاجتماعية أو السيكولوجية الاجتماعية الخاصة بها ، وابتكار المفاهيم الملائمة

أن الشمبانزية لم تكشف عن شىء من السلوك اللغوى الطبيعى أو بوادره الأولى كما تبدو عند الطفل البشرى . ويقرران أنها لم تمارس « المناغاة babbling » إلا إلى حد أقل بكثير مما يفعل الأطفال ، وحتى هذه المناغاة الضئيلة جداً اختفت تماماً عندما بلغت فيكى الشهر الخامس من عمرها . وهما يقرران أنهما نجحا فى تعليمها أن تقول كلمات ثلاثة : « ماما mama » و « بابا papa » و « cup » . ولم تستخدم فيكى هذه الكلمات استخداماً صحيحاً فى البداية . ولكن عندما طالباها بذلك تعلمت أن تخاطب المجرب قائلة « ماما » أو « بابا » ، وأن تقول « cup » عندما تريد أن تشرب شيئاً. إلا أنها ظلت تخلط بين الكلمات من حين لآخر ، وخاصة عندما كانا يدفعانها إلى الكلام أو عندما تريد شيئاً ما بشدة . ويرى الباحثان أن عيب الكلام الماثل عند فيكى يشبه ما نراه لدى الآدميين الذين يعانون من مرض الأفازيا (الحبسة) نتيجة لإصابة فى الدماغ ، أكثر مما يشبه ذلك النوع من عيوب الكلام الماثل لدى ضعاف العقول . (D. Katz 1953, P. 40)

لها. وسنجد أن هذه المفاهيم اجتماعية وليست بيولوجية. ولا يختلف هذا الموقف عن موقف علماء البيولوجيا الذين يستحدثون المفاهيم الملائمة للظواهر البيولوجية مع التسليم بأن التحليل العميق لهذه الظواهر من شأنه أن يكشف عن اعتماد هذه الظواهر على عمليات كيميائية وفيزيقية. كذلك يضطر علماء النفس إلى صياغة المفاهيم الملائمة للظواهر السيكولوجية مع التسليم بأن هذه الظواهر فى تحليلها العميق تقوم على عمليات بيولوجية. على أن معرفتنا بدقائق العمليات القائمة فيما بين ظواهر المادة غير الحية والمادة الحية، والقائمة فيما بين العمليات البيولوجية والعمليات السيكولوجية، والقائمة كذلك فيما بين التكامل الاجتماعى تحت البشرى والتكامل الاجتماعى البشرى لا تزال مليئة بالثغرات. وهذا أحد الأسباب الهامة فى وجوب تخصيص مفاهيم مختلفة لتفسير ظواهر هذه المستويات المختلفة. وإلى أن يتقدم البحث حتى تُملأ هذه الثغرات يجب الاحتفاظ بهذا التمييز والحرص على إبرازه، وإلا كان علمنا مبسطاً تبسيطاً مخلا. وتدل عدة دلائل على أن التقدم العلمى صائر إلى هذا، فالكيمياء العضوية، والطب السيكوسوماتى حلقتان للاتصال، الأولى بين دراسة ظواهر المادة غير الحية ودراسة ظواهر المادة الحية، والثانية بين دراسة العمليات البيولوجية ودراسة العمليات السيكولوجية. ومن خلال الدراسات التطورية الحديثة ينتظر ظهور العلم الذى يمكنه أن يقوم بمهمة حلقة الاتصال بين دراسة التجمعات الحيوانية ودراسة الجماعات البشرية.

الفصل الثانى

نماذج للتجمعات تحت البشرية

النمل – الطيور – القردة العليا

أهم هذه التجمعات وأشدها بروزاً من حيث درجة الاستقرار والتنظيم تجمعات بعض الحشرات والثدييات العليا .

١ – استرعت تجمعات النمل أكثر من غيرها اهتمام المشاهدين منذ أزمنة بعيدة ، وذلك فيما يبدو لتوفر هذين العنصرين – عنصرى الاستقرار والتنظيم – بدرجة كبيرة فيها . وكانت النتيجة أن رأى البعض فيها نماذج دقيقة للجماعة البشرية على نطاق صغير ، ولكن بصورة أشد إحكاماً بحيث يجب اعتبارها مثلايحتذى (H. Bergson 1932; A. Manhattan 1951) .

إلا أن الدراسات المقارنة الحديثة التى تقوم على دعامة قوية من المشاهدة الدقيقةبل والمحاولات التجريبيةأحياناً (O.E. Plath 1935) تدل دلالة واضحة على أن هذا التصور ينطوى على خطأ أساسى ، فالتجمع الحشرى يقوم فى مستوى تكيفى أدنى بكثير من المستوى التكيفى الذى تقوم فيه الجماعة البشرية ، من حيث إن الارتقاء فى عمليات التكيف يمضى نحو زيادة اتساع نطاقها وتنوعها . (C.J. Herrick 1949) .

١ – يقوم تجمع النمل وحياة أبناء المسكن الواحد معاً فى سلام على أساس التكيف الكيميائى مع المسكن . إذ يكتسب أبناء المسكن الواحد رائحة معينة تكون بالنسبة لهم عنوان العضوية الاجتماعية ، بحيث إذا اقتحمت نملة مسكنا غير مسكنها فإنها تهاجم من نمل هذا المسكن وتطرد أو تقتل حتى ولو كانت من نفس نوعه . ويلاحظ أن هذا التكيف الكيميائى يستند إلى استعداد عضوى

لدى الأفراد ، هو الحساسية الشمية القوية . هذه العضوية الاجتماعية القائمة على أساس كيميائى هى الشرط الأول فى التقارب والحياة معاً . ونستطيع أن ندرك مدى أهميتها إذا عرفنا أن بضع نملات من أنواع مختلفة إذا جمعت ونشئت معاً فى مسكن واحد منذ بدء طور اليرقة [١] فإنها عندما تكبر تعيش معاً ولا تتفرق تبعاً لأنواعها .

ويتدخل هذا التكيف الاجتماعى الكيميائى فى تحديد سلوك أفراد النمل بشكل واضح ، ذلك أنهم عندما يندفعون خارج المسكن طلباً للقوت يكونون فى حالة من التهيج يصحبها صدور إفرازات معينة من غدة فى مؤخر الجسم ، وتسقط هذه الإفرازات على التربة ثم إذا بالنمل يحدد مجال نشاطه بمنطقة الأرض المشبعة بهذه الإفرازات ولا يتخطى حدودها ، إلا إذا اضطرته إلى ذلك عوامل معينة ، كالتنبيهات اللمسية المتتالية ، إذ يترتب عليها تهيج الأفراد ، وعندئذ يفرزون الإفرازات على المنطقة الجديدة ثم تتحدد حركتهم بحدودها[٢] .

ب — وإلى جانب هذا التقارب الذى يقوم على أساس كيميائى ، نجد أن ما يبدو لبعض المشاهدين على أنه « تقسيم عمل اجتماعى » مناظر لتقسيم العمل الذى نعرفه فى المستوى الإنسانى ، ليس سوى تخصص مورفولوجى تمليه — إلى حد كبير — الخصائص العضوية للأفراد . وهذا ما انتهت إليه بحوث روش G.A. Rosch وإمرسون A.E. Emerson وجوتش W. Goetsch (T.C. Schneirla 1941) فيقرر روش أن وظائف أفراد النحل تتغير تغيراً أساسياً تبعاً لحدوث تغيرات عضوية هامة لديها . فتتحول الصغار من «دور الصغار العاجزين إلى دور «البنائين» عندما يتضاءل نشاط غددها البلعمية[٣] ويحل محله نشاط غددها الشمعية ،

---

(١) larva

(٢) يلاحظ أن هذا الوصف للتكيف الاجتماعى الكيمائى عند النمل مبسط جداً . ويمكن الاستزادة فى هذا الصدد بالرجوع إلى :

Morley, D.W. *The Ant World*, London: Penguin Books, 1953.

(١) pharyngeal glands

وفى نهاية الأسبوع الثالث من عمرها يتضاءل نشاط غددها الشمعية فتتحول إلى الانطلاق فى الحقول . ويثبت إمرسون مشاهدة بالغة الأهمية فى هذا الصدد ، مؤداها أنه فى بعض الحالات ينتاب أفراد النمل الأبيض الذى يعيش فى المناطق الحارة tropical termites أكثر من تغير مرفولوجى ووظيفى فى مرحلة واحدة من العمر ، فقد لوحظ أن بعض الأفراد تحولت من « فعلة » إلى « جنود » أضف إلى ذلك حقيقة أخرى لا تقل من ذلك أهمية ، ولها نفس الدلالة ، ذلك أن كل نوع من أنواع النمل المعروفة لنا الآن — وهى تبلغ حوالى ٣٥ ألف نوع — يعيش معيشة ذات نمط معين ، مما يدل على توقف نمط التجمع على الخصائص العضوية إلى حد كبير (C.J. Herrick 1949) .

هذه الملاحظات تثير فى الذهن ملاحظات مشابهة عن الحياة الاجتماعية فى المستوى الإنسانى ، إذ أننا لا نستطيع أن ننكر وجود فوارق واضحة بين سلوك الطفل وسلوك المراهق وسلوك الراشد ، كما أننا لا نستطيع أن ننكر أهمية عامل النمو العضوى فى ظهور كل من هذه الضروب الثلاثة من السلوك ، إلا أن هذا التشابه تشابه شكلى يخفى فى طياته اختلافاً حاسماً من حيث درجة اعتماد نمط السلوك على العوامل العضوية ، فسلوك الطفل يمكن أن يتشكل دون أن يتوقف ذلك على تغيرات فيزيولوجية أو مورفولوجية واضحة وكذلك سلوك المراهق وسلوك الراشد ، مما يدل على درجة فائقة من المطاوعة فى السلوك البشرى لا تتوفر فى سلوك الحشرات (M.F.A. Montagn 1947) فليس ثمة إذاً فى مستوى الحشرات تقسيم اجتماعى للعمل ، ولكن هناك تخصص عضوى . ويتضح الفرق بين الاثنين إذا عرفنا أن الأول ينطوى على المرونة بينما ينطوى الثانى على التصلّب ، وأن الأول يتوم أولا وقبل كل شىء على عمليات اجتماعية معينة يشار إليها بعمليات الإدماج الاجتماعى أو التطبيع[1] بينما يقوم الثانى على

---

(١) socialization

أصول عضوية أولا وقبل كل شىء (C.J. Herrick 1949; T. C. Schneirla 1941)

جـ — وتكتمل الجوانب الرئيسية للصورة التى نرسمها لأنفسنا عن تجمع النمل عندما نعرف حقيقة الصلة بين أفراد المسكن الواحد. فثمة تفاعل بين الأفراد لا يمكن إنكاره وإلا عجزنا عن تفسير الكثير من سلوكه. إلا أن هذا التفاعل محصور فى نطاق ضيق جداً، إذ يعتمد أساساً على التنبيهات اللمسية المتبادلة بين الأفراد بواسطة قرون الاستشعار [١]، وهذه اللمسات المتبادلة إن هى إلا أفعال منعكسة شرطية قامت كامتداد للأفعال المنعكسة التى تصدر عن صغار النمل وهى بعد فى طور اليرقة طلباً للقوت، إذ أن هذه الصغار تكون فى حالة جوع شبه دائم ويصحب ذلك اهتزاز شديد فى قرون استشعارها، فإذا ما اقترب منها النمل اليافع وتعرض للمسات من هذه القرون خرجت من حوصلته كمية من الطعام وسقطت فى أفواه الصغار، وهذا من شأنه أن يثبت فى الصغار عملية اهتزاز القرون فتظل معها حتى اليقاع. ويطلق هويلر W.M. Wheelr على هذه العملية اسم trophallaxis ومن الواضح أن التقارب الاجتماعى الذى ينتظم من خلال هذه العملية يقوم على أساس أن « الآخر مصدر للطعام ». ولسنا بصدد لغة ولا رموز لنقل الأخبار كما كان فازمان E. Wasmann وغيره يقررون (T. C. Schneirla 1941).

ومن الأدلة كذلك على تصلب سلوك الحشرات الاجتماعى ما نلاحظه على إناث حشرة الأذن ذات المقص [٢] فى سلوكها نحو أفراخها؛ إذ تضع البيض وترقد عليه، ثم تلعقه من حين لآخر، وبذلك تساعد اليرقات على الظهور. إلا أن بعض اليرقات تكون فى حاجة إلى من يخلصها من بقية قشرة البيضة، فلا تجد هذه المساعدة من الأم. وقد تهلك هذه اليرقات دون أن تلقى أى عون

---

(١) antennae

(٢) earwig

د ــ هذه هى الجوانب الثلاث الكبرى للحياة الاجتماعية لدى النمل ؛ تقارب يقوم على أساس كيميائى ، ووظيفة اجتماعية تقوم أولا على أساس فيزيولوجى ، وتفاعل يقوم على أساس لمسى . ومن الواضح أنها تتكاتف جميعاً على توفير نمط من التكيف يمتاز بالضيق والتصلب أو التحجر ، مما يجعله قليل الكفاءة إزاء مقتضيات البيئة . ولذلك يهلك النمل بأعداد هائلة ، ولا يعوض ذلك إلا خصوبته الشديدة فى التناسل .

وهذا الذى نقرره عن انخفاض المستوى التطورى للتكامل الاجتماعى لدى النمل يتفق تماماً مع ما هو معلوم عن مستوى التطور البيولوجى الذى يشغله . فهو تابع لرتبة [١] الحشرات الداخلة فى قبيل [٢] الحيوانات المفصلية [٣] . وأهم ما يميز هذا القبيل ضيق نطاق الحركات التكيفية لأفرادها ــ من مختلف الرتب ــ القيام بها ، نتيجة لمورفولوجيتها ؛ فأجسامها وأطرافها مقسمة إلى عدد من الأجزاء المغطاة بقشرة صلبة (كيوتينية) مقسمة هى الأخرى إلى أجزاء تكاد تكون مناظرة للأجزاء اللحمية ، وتصل بينها مفاصل لا تتيح الحركة إلا فى حدود زوايا محددة ضيقة (J.Huxly &others, 1938p.206) أضف إلى ذلك ما هو معلوم من ضآلة عدد خلاياها العصبية ، مما يترتب عليه ضآلة عدد الارتباطات العصبية (الوظيفة) التى لا بد منها لقيام الاكتساب المفصل وبالتالى لقيام السلوك المرن . ومن الجدير بالذكر أن الحشرات كرتبة توضع فى مستوى منخفض عن الثدييات . ويقدر علماء التطور أنها ظهرت قبل الثدييات بحوالى ١٥٠ مليون سنة (C.J. Herrick 1949) .

٢ ــ فإذا انتقلنا إلى تجمعات الطيور وجدنا عنصرى الاستقرار والتنظيم ماثلين ولكن بصورة أضعف وأشد خفوتاً من تلك التى يتمثلان بها فى تجمعات النمل . فالاستقرار ــ فى حالة التجمعات الكبيرة ــ استقرار موسمى يظل قائماً طوال موسم عدم الإخصاب . فإذا ما نشطت الحوافز التناسلية تفكك التجمع

(١) class (٢) phylum (٣) arthropoda

الكبير إلى تجمعات صغيرة متباعدة[١] . ولذلك يسهل على الأفراد الذين يحاولون أن ينضموا إلى التجمع أن ينجحوا فى محاولتهم فى ذلك الموسم . فى حين أنهم إذا حاولوا ذلك فى وقت آخر قوبلوا بالعدوان والهجوم من الجميع (H. Friedman 1935) وليس للتنظيم تلك الصرامة التى يمتاز بها فى تجمعات النمل. وأهم ما يوضح ذلك أنه لا وجود لظاهرة الطوائف (ذات الأعمال الخاصة والبناء العضوى الخاص) التى هى قوام تجمعات النمل . ومع أن نظام السيطرة (نظام النقر[٢]) — وهو أوضح مظاهر التنظيم فى تجمعات الطيور — يبدو على درجة عالية من الثبات وثقل الوطأة، فإنه لا يبلغ فى صرامته مبلغ نظام الطوائف فى تجمعات النمل لسبب بسيط ، هو أنه — أى نظام النقر — لا يتوقف على الخصائص الجسدية وحدها لدى الأفراد ؛ فعامل القوة الفردية والحجم يعتبر فقط من بين العوامل الهامة الداخلة فى تحديد المسيطر والخاضع ، لكنه ليس العامل الأوحد، والدليل على ذلك ما نلحظه من أن انتظام نظام النقر أو السيطرة لا يكون فى خط مستقيم صاعد ، بحيث يكون ا مسيطراً على ب ، وب مسيطراً على جـ ، و جـ مسيطراً على د ... إلخ ، وفى النهاية يكون ا مسيطراً على الجميع و ب مسيطراً على الجميع إلا واحداً ، وهكذا ، بل نجد أنه ينتظم فى شكل دائرى غالباً . فالطائر ا يسيطر على ب ، وب يسيطر على جـ ، و جـ يسيطر على ا . ولو كان عامل القوة الجسدية أو الحجم هو وحده العامل المحدد لألفينا ا مسيطراً على جـ (T. Schjelderup-Ebbe 1935) .

وكما انتشرت بعض الآراء التشبيهية[٣] حول إنسانية الحياة فى تجمعات النمل ، كذلك انتشرت آراء مماثلة حول إنسانية الحياة فى تجمعات الطيور ؛ فنسب التعاون إلى أعضائها اليافعين ، ولا سيما فيما يتعلق بالدفاع عن كيان الجماعة ضد

---

(١) يتحقق ذلك فى حالة الطيور التى تتغذى فى مكان وتتناسل فى مكان آخر ، أما الطيور التى تتغذى وتتناسل فى مكان واحد فإنها تظل فى الغالب على شكل تجمعات صغيرة متباعدة ولا تكون تجمعات كبيرة .

(٢) pecking order (٣) anthropomorphic

تدخل الغرباء ، كما نُسبت إلى هؤلاء الأفراد مشاعر الرحمة والحزن لفقد أحد الزملاء من أعضاء الجماعة، ونُسبت إليها مشاعر الصداقة أيضاً . كذلك قيل بوجود تنظيمات جماعية لتربية الصغار ، وغير ذلك من الصفات التى تجسمها المخيلة النشطة ولا يشهد بصدقها التحقيق العلمى الدقيق ؛ فما ظن أنه تعاون بين اليافعين على طرد الطيور الغريبة التى تحاول أن تنضم إلى القطيع ليس فى واقع الأمر تعاوناً ، بل هو اندفاع من كل فرد على حدة إلى مهاجمة الغريب دفاعاً عن نفسه هو ، ويقول شلدرب إبه (T. Shjelderup Ebbe 1935) إن ما خدع البعض فى هذه الظاهرة هو ما يبدو من تشابه بين حركات المدافعين بحيث ظن أن هذا التشابه ضرب من التآزر المدبَّر ، وهذا غير صحيح ، وحقيقته أنه تشابه يمليه ضيق نطاق الحركات التكيفية لدى الأفراد . وما ظُن أنه شعور بالرحمة والحزن لفقد أحد الزملاء من أعضاء الجماعة ليس كذلك فى الواقع بل أقصى ما يمكن أن يقال فيه إنه إحساس غامض بأذى لحق بجزء من الوحدة التجمعية (H. Friedman 1935) شأنه فى ذلك شأن أى تغير يلحق ببيئة الطائر ، فإنه يثير لديه مظاهر الحصر الواضحة . وكلما اشتد بروز هذا التغير كانت مظاهر الحصر أشد وضوحاً لدى الطائر . وما ظن أنه من قبيل مشاعر الصداقة تأويل غير دقيق لمظاهر التقارب الهادئ بين بعض الأفراد ، وحقيقته أن دوافع العدوان والسيطرة لدى الذكور العدوانيين أو الإناث العدوانيات تخفت وتتضاءل كلما تيقظت الحوافز الجنسية ، ونتيجة لذلك يرافق الذكر أنثاه دون عدوان ، فإذا ما خمدت هذه الحوافز عاد كل إلى سابق سيطرته أو خضوعه (T. Schjelderup-Ebbe 1935) ويندر أن نلحظ تقارباً هادئاً بين فردين من نفس الشق [1] (ذكرين أو أنثيين) داخل التجمع ، اللهم إلا عندما يسود الظلام فيتعذر على الطائر أن يرى الآخرين ، ولما كان تكيفه يعتمد أساساً على حاسة الإبصار فإنه يتخذ موقفاً سلبياً ليس فيه

---

(١) sex

عدوان ولا فرار . كذلك ما يقال عن التنظيم الجماعى لتربية الصغار ، فالواقع أن كل طائر يطعم أفراخه هو ولاشأن له بأفراخ الآخرين. ولذلك فالأفراخ التى يموت أبواها أو يختفيان لسبب ما يكون نصيبها الموت جوعاً (H. Friedman 1935) .

من ذلك يتضح أن تجمعات الطيور تحمل فى نفسها بذور التقارب والتفاعل الاجتماعيين . إلا أن هذه البذور لا ترقى أبداً إلى المستوى الإنسانى . إنها تقف فى السلم التطورى فى مرتبة أعلى من مرتبة تجمعات النمل ، وذلك على أساس ازدياد عدد المجالات الطبيعية التى تستطيع أن تتكيف معها ، وازدياد مرونة هذا التكيف . لكنها إذا قورنت بالمجتمع الإنسانى بدت مع ذلك شديدة التصلب ضيقة نطاق التكيف ، ومن ثم فهى دون المستوى الإنسانى بكثير . فليس للعلاقات بين الأفراد سوى عدد ضئيل جداً من الأنماط ، فإما تقارب تناسلى وإما سيطرة وخضوع . والنسبة بين هذين وبين عدد الأنماط التى يمكن أن تنتظم فيها علاقات أفراد المجتمع الإنسانى فيما بينهم لا تكاد تذكر . وربما كان من أهم العوائق السيكولوجية التى تحول دون تحقيق مثل هذا العدد الهائل من أنماط العلاقات الإنسانية فى تجمعات الطيور عدم وجود اللغة كأداة للتكيف الاجتماعى . أما يقال عن وجود بعض مظاهر اللغة عند بعض الطيور فلا يثبت أمام التحقيق العلمى الدقيق . اللغة هى الأداة الرئيسية التى أمكن بوساطتها تحقيق هذا العدد الهائل من الأنماط فى العلاقات الاجتماعية بين الناس . ويمكن اعتبار العجز اللغوى لدى الأطفال فيما قبل السنة الرابعة من العمر أحد الأسباب الرئيسية فى عجزهم عن الانضمام إلى جماعات اللعب التى تتألف من أطفال يماثلونهم فى السن أو يكبرونهم قليلا . كذلك من أهم أسباب هذا الفقر فى إمكانيات تعدد العلاقات الاجتماعية بين أفراد تجمع الطيور ارتباط سلوكها الاجتماعى ارتباطاً واضحاً بخصائصها العضوية . حقاً إن هذا الارتباط يبدو واهناً إذا قورن بارتباط سلوك النمل بخصائصه العضوية لكنه مع ذلك يبدو وثيقاً إذا قورن بالسلوك الإنسانى ومدى اعتماده على

الخصائص العضوية للفرد .

فهجرة بعض الطيور (شمالا فى الربيع وجنوباً فى الخريف) تتوقف بشكل واضح على حدوث تغيرات فيزيولوجية معينة فى الطائر ، إذ تنشط غدده التناسلية (نتيجة لتزايد كمية الضوء فى الربيع) ويتبع ذلك ازدياد حساسية الطائر للحرارة ، مما يدفعه إلى الهجرة شمالا حيث يجد مناطق أقل استضاءة وأقل حرارة. ويحدث عكس ذلك فى الخريف (W. Rowan & L. Roule 1938) كذلك يلاحظ أن استقرار علاقات السيطرة والخضوع بين أفراد التجمع يتوقف على عوامل عضوية معينة . فإذا ثارت الحوافز التناسلية مثلا خمدت دوافع العدوان والسيطرة . وإذا حدثت تغيرات جسمية واضحة لدى الأفراد تخلخل النمط السائد وبدأت المنازعات لتقرير نمط جديد . وكثيراً ما تحدث هذه التغيرات الجسمية بالنمو أو بتغير فصول السنة أو بالمرض (T. Schjelderup-Ebbe 1935) .

وإذا كان هذا الفقر الشديد فى تنظيم العلاقات الاجتماعية فى تجمعات الطير مما يسترعى انتباهنا فإن عدم الاستقرار يسترعى انتباهنا كذلك . ولهذا عدة أسباب ، نجتزئ منها بذكر سبب سيكولوجى على جانب كبير من الأهمية ، وهو ضعف الذاكرة لدى الطيور ضعفاً شديداً جداً إذا قورنت بما هى عليه فى الإنسان . فبينما تصل قدرة الإنسان إلى درجة التعرف على الآخرين بعد انقضا عدة سنوات منذ مفارقتهم حتى ولو كانوا صغاراً وأدخل النمو عليهم عدة تغيرات فى الحجم والشكل ، نجد أنه تكفى التفرقة بين طائرين يافعين من (نفس النوع) لمدة أسبوعين حتى يجهل كل منهما الآخر جهلا تاماً . أما فى حالة التفرقة بين الكبار والصغار فيكفى أن نفرق بين الطائر وأفراخه لمدة أسبوع واحد حتى يجهلها ولا يتعرف عليها بعد ذلك (وذلك بسبب كف بعض الغدد الصماء وتنشيط غيرها) ، حتى ولو تعرفت الصغار عليه (T. Schjelderup-Ebbe 1935) ولا جدال فى أن نمط التكامل الاجتماعى الإنسانى بما له من تعقد وتشعب ، وما يقتضيه من تباعد بين الأفراد ليعودوا إلى التقارب من جديد فى مستوى أثرى

وأعلى مما كان عليه (كتباعد الأبناء عن الآباء فى ذهابهم إلى المدرسة وفى رحلاتهم العلمية ، وكتباعد الفتى عن الفتاة التى يحبها ليعود إليها بعد أن يحصل على مكانة اجتماعية مرموقة ، و . . . إلخ) ليتطلب ضمن شروطه السيكولوجية ذاكرة أقوى من ذلك بكثير . كذلك اتساق[1] الدور الاجتماعى[2] الذى تقوم به الشخصية — وهو السائد لدى الأسوياء — يتطلب هو الآخر ذاكرة قوية تكون تعبيراً عن وحدة الشخصية فى الزمان ودعامة لها . (ى . مراد ١٩٤٧) . ولا شك أننا نعجز عن التماس نظير هذا الاتساق فى جماعات الطير ، نظراً لشدة تأثير التغيرات العضوية فى السلوك . وهذا سبب آخر من أسباب عدم الاستقرار . على أننا إذا نظرنا إلى سلوك الطير الاجتماعى من زاوية ثالثة وهى زاوية تأثره المباشر بمؤثرات البيئة الطبيعية ، أمكن لنا أن نرى فى ذلك مظهراً آخر من مظاهر عدم الاستقرار ، الذى يرجع فى النهاية — إذا ما قورن بالسلوك الاجتماعى لدى الإنسان — إلى ضيق نطاق القدرة على الاكتساب ، وهى التى تصل فى نموها لدى الإنسان إلى تلك الدرجة الفائقة التى تمكنه من استيعاب تراث الأجيال السابقة الفكرى والمادى ليكون منه البناء الحضارى الذى يقوم كبيئة تتوسط بينه وبين البيئة الطبيعية ويكون لها الأولوية غالباً فى التأثير عليه ، فتدخل الاتصال والاتساق على تاريخه .

والخلاصة أن تجمعات الطير تقوم دليلا واضحاً على أن جذور التكامل الاجتماعى تمتد فى المادة الحية إلى مستويات أدنى بكثير من المستوى الإنسانى . فثمة استقرار وتنظيم داخل وحدة اجتماعية لها حدودها الواضحة (على الأقل فى موسم التجمع) ، بحيث يبدو أن لها درجة معينة من الانغلاق تتجلى فى مهاجمة الجميع للقادم الغريب . إلا أن هذا التكامل ذو نمط أدنى بكثير من نمط التكامل فى المستوى الإنسانى . ومعيار الانخفاض والارتفاع هو كما أسلفنا القول مدى كفاية السلوك لتحقيق تكيف ناجح (T.C. Schneirla 1941) ومن تحليلنا

(١) consistency (٢) social role

للأسس التى يقوم عليها هذا التكامل نستطيع أن نضع الفروض الثاقبة لتعيين أسس التكامل الاجتماعى فى المستوى الإنسانى. ومن الواضح أننا إذا أردنا أن نلتمس هذه الأسس فيجب أن نلتمسها فى سيكولوجية اللغة والذاكرة والاكتساب والاستقلال النسبى لسلوك الشخصية عن التغيرات العضوية التى تنتابها (M.F.A. Montagu 1947).

وإذا ألقينا بنظرة سريعة على الأسس العصبية لهذا السلوك الذى يمتاز بالصلابة وضيق نطاق التكيف (إذا قورن بسلوك الإنسان)، ألفينا أن الشىء الرئيسى فى الجهاز العصبى لدى الطيور هو تضخم الجسم المخطط[1] بحيث يبدو أنه الجزء الرئيسى بين أجزاء المخ، فى حين أن اللحاء[2] يبدو ضئيلا جداً. ولما كان الجسم المخطط هو مركز تنسيق الحركات المتآزرة (J.F. Foulton 1945) فإن سلوك الطير لا يمكن إلا أن يكون سلوكاً يغلب عليه التحجر مع عجز واضح عن التكيف الذكى إذا ما قورن بسلوك الثدييات بوجه عام؛ إذ أن هذا الأخير يستند إلى دماغ يضم جسماً مخططاً ضئيلا بالنسبة إلى اللحاء الذى يأخذ فى النمو حتى يصل إلى هذا الحجم الهائل الذى يبلغه فى الإنسان. ويقول هكسلى J. Huxley إن من أهم الفوارق بين سلوك الطيور وبين سلوك الثدييات بوجه عام تفوق الذكاء والذاكرة وسرعة الاكتساب لدى الأخيرة.

أضف إلى ذلك ما تنبئ به الملاحظة العابرة من شدة تخصص أعضاء الطائر (الجناحين مثلا) إذا ما قورنت ببعض أعضاء الإنسان (اليدين مثلا). فإن هذا التخصص الشديد يقلل من قدراتها التكيفية. ويمكن اعتبار جسم الطائر بوجه عام متحجر النمط[3] إلى حد كبير، وينعكس أثر ذلك فى سلوكه بشكل ملحوظ (J. Huxley & H.G. Wells 1938) وهنا يلزمنا أن نثبت ملحوظة جدسون هريك إذ يقول: من الجدير بالذكر أن أجسام الطيور متخصصة بشكل يفوق كثيراً أجسام الثدييات. والطيور بوجه عام ناجحة جداً كنجاح الحشرات، وتعتمد على أنماط السلوك الوراثية الجامدة. ولا يمكن إنكار

(١) corpus striatum (٢) cortex (٣) stereotyped

أن الطيور أذكى من النمل ، وأن حياتها أثرى من حياة النمل ، وخبراتها أكثر تنوعاً ، لأنها ذات استعدادات وراثية للتكيف مع بيئة تفوق فى تعقدها بيئة النمل . والطيور كرتبة تتكيف مع أنواع مختلفة من البيئة . إلا أن الطائر الفرد ليس شديد القابلية للتكيف ، كما أن قدرته على الاكتساب أضعف بكثير من قدرة الثدييات العليا . وقد انتهج تطور الثدييات اتجاهاً مخالفاً ، أهم ما يميزه ازدياد قدرة الفرد على التكيف والتعلم ، لا مجرد ازدياد تنوع فصائل الرتبة ، كما فى الطيور (C.J. Herrick 1949).

٣ – ولننتقل الآن إلى تجمعات القردة العليا ، ولا سيما الشمبانزية . وسوف نقف عندها وقفة أكثر تدقيقاً وتفصيلا من وقفتينا السابقتين عند تجمعات الحشرات والطيور ، وذلك لشدة ارتقائها إذا ما قورنت بالنمطين السابقين ، ولكثرة أوجه الشبه (التى يتبينها المشاهد العابر) بين سلوك هذه الحيوانات وسلوك الإنسان . فكل من قصد إلى حدائق الحيوان أو أتيح له أن يشهد هذه الحيوانات فى بيئتها الطبيعية لاشك فوجئ بالمظهر الشبيه بالإنسانى الذى لا يمكن إنكاره لكثير من جوانب السلوك لدى هذه الحيوانات . فهى تكثر من استخدام اليدين بطريقة شبه إنسانية ، وبدلا من أن تمد فمها إلى الطعام كسائر الثدييات (القطط والكلاب . . إلخ) تتناول الطعام بيديها وترفعه إلى فمها . هذا إلى أنها تقوم بالكثير مما يدل على ذكاء عال وقدرة على المحاكاة لا نشهدها فى سائر مستويات الحيوان . على أن مظاهر السلوك الاجتماعى هى من أبرز ما يفجأنا فى سلوك هذه الحيوانات . فمعظمنا قد شهد (فى جبلاية البابون فى حدائق الحيوان) بعض الإناث تساعد صغارها على التعلق ببطونها أو على امتطاء ظهورها ، أو بعض الذكور تحمى صغارها وإناثها ضد محاولات الاقتراب التى يقوم بها ذكور آخرون ، أو بعض الصغار تلعب مع البعض ، أو بعض الإناث والصغار تتحرك فى ركاب الذكر ، كأنهم أعضاء أسرة أبوية[1].

---

(١) patriarchal

بل إن من يحاول الإمعان فى أحوال معيشة تلك القردة — زيادة على مجرد المشاهدة العابرة — لا يلبث أن يشهد ضروباً من السلوك الاجتماعى أعقد من ذلك بكثير ، كانقسام الرهط إلى عدة وحدات صغرى أسرية ذات نمط ثابت هو النمط البوليجينى (ذكر واحد وعدة إناث) ، واستمرار التقارب المكانى بين أعضاء الأسرة الواحدة ، والمشاجرات التى تنشب أحياناً بين بعض الإناث اللاتى يتألف منهن حريم الذكر ، وهكذا .

هذه المشاهدات وغيرها — مما يكشف عن شدة اجتماعية القردة العليا — هى التى تحفزنا إلى الاهتمام بنمط حياتها . فالمسافة بين هذا النمط وبين نمط الحياة الإنسانيةقصيرة إذا ما قورنت بالمسافة بين هذا الأخير وبين نمط حياة الحشرات أو الطيور . فهى تمثل مرحلة هامة من مراحل ارتقاء الاستجابات الاجتماعية فى السلسلة الحيوانية . وهى المراحل الماثلة أمامنا إلى المرحلة الإنسانية . وفى ذلك تنحصر أهميتها . فسبر أعماقها مع المقارنة الدائمة بينها وبين المرحلة الإنسانية من شأنه أن يكشف لنا بوضوح عن أسس التكامل الاجتماعى الإنسانى من حيث إنه تكامل فريد فى نوعه . ومن هنا كان يركيز R. Yerkes يقول : إننا نرى أن لهذه البحوث فى حياة الثدييات العليا أهمية كبرى فى حل كثير من مشكلات الإنسانية (R.M. Yerkes & A.W. Yerkes 1935) .

والسؤال الآن هو : ما هى الصفات التى تضع نمط التكامل الاجتماعى لدى القردة العليا فى مستوى أرقى من مستوى تجمعات الحشرات والطيور ؟

يمكن تلخيص هذه الصفات فيما يلى :

ا — ازدياد أهمية الاكتساب الاجتماعى بشكل واضح .

ب — ازدياد تحرر السلوك من وطأة الحتمية العضوية (المورفولوجية ، أو الفيزيولوجية) .

حـ — ازدياد قدرة الذاكرة .

د — نمو الخيال المبدع .

هـ — اتساع نطاق التعبيرات الصوتية .

و — بروز القدرة على المحاكاة .

وفيما يلى بعض الظواهر السلوكية التى توضح هذه الصفات :

ا — فأما عن ازدياد أهمية الاكتساب الاجتماعى فأبرز ما يوضح ذلك طول مدة الحضانة وشدة تعقد الصلة بين صغار الشمبانزيه وكبارها . ذلك أن الوليد الشمبانزى يكون عند ولادته شديد الشبه بالوليد الإنسانى من حيث عجزه عجزاً شديداً عن أن يسعى إلى إشباع حاجاته بنفسه ، حتى إنه إذا ترك وشأنه فإنه يهلك . ولذلك فهو يتعلق ببطن أمه ويبدأ الرضاعة بعد ولادته ببضع ساعات . ويظل على هذه الحال مدة تبلغ حوالى الثمانية أسابيع ، وتكرس الأم لرعايته معظم وقتها وجهدها . وفى أواخر الشهر الثانى تبدأ محاولات الصغير القيام بالحركة المستقلة ، وتمنع الأم هذه المحاولات فى بدايتها كما تمنع محاولاته أن يتناول أى طعام إلا من أثدائها . ولكن محاولات الصغير الاستقلالية تزداد إلحاحاً بازدياد نموه ، وتبعاً لذلك يتغير سلوك الأم ، فإذا بها تشجع هذه المحاولات وتيسرها بطرق معقدة أمكن تسجيلها بالتصوير السينماتوجرافى . وفى النصف الثانى من السنة الأولى يترك التعلق ببطن أمه ليتعطى ظهرها . وفى نهاية السنة الأولى يصير قادراً على الحركة المستقلة ، لكنه مع ذلك يظل عاجزاً عن إشباع الكثير من حاجاته بنفسه ولا سيما حاجته إلى الطعام ، ولذلك فإنه يظل يرضع من ثدى أمه لبضع شهور بعد ذلك . وبعد انقطاعه عن الرضاعة لاتنقطع صلته بأمه ، بل يظل معتمداً عليها — اعتماداً جزئياً — حتى سن الثلاث السنوات تقريباً . وتظل هى دائمة العناية به ، تغذيه وتحميه وتوجهه وتعلمه . وهنا يقول يركيز R. Yerkes : يجب ألا ننفر من استعمال كلمات التربية والتعليم والتدريب فى هذا الصدد لمجرد أننا هنا فى مستوى دون المستوى الإنسانى ، بل يجب أن نستخدم هذه الكلمات ، لأن جميع الظواهر تدل على أن أنثى الشمبانزى تقصد فعلا إلى تشجيع وليدها ، ومساعدته على الاستقلال الحركى ، من

مشى وتسلق وجرى. بل إننا لنشهد مظاهر التمرين المنظم للوليد تقوم به الأم فترة من الوقت أثناء السنة الأولى من العمر (R.M. Yerkes & A.W. Yerkes 1935) ولهذه الملوحظة الأخيرة التى يبديها يركيز دلالة هامة ، إذ أن العلاقة بين الصغار والكبار تبلغ لدى الشمبانزية طولا وتعقداً لا تبلغهما فى أى مستوى آخر تحت المستوى البشرى ، حتى ولا فى سائر أنواع القردة العليا ، كالبابون والنسانيس النابحة . ولذلك يقرر يركيز (1935) فى موضع آخر أن العلاقة بين الصغير وأبويه تزداد بتداء من الليمور حتى الشمبانزى من حيث المقدار والتنوع كما أنها تصبح ذات طابع تربوى أكثر فأكثر ، بعد أن كانت تقتصر (لدى سائر الثدييات) على تقديم الغذاء والحماية وبعض الخدمات الصحية اللازمة لبقاء الصغار .

فإذا اعتبرنا طول مدة اعتماد الصغار على الكبار ، وازدياد تنوع العلاقة بين الجيلين دالتين لشدة مطاوعة الوليد وقابليته للتشكل ، وأدخلنا فى حسابنا تلك الحقيقة الهامة وهى أن تجمعات الشمبانزية (التجمعات الأسرية) ثابتة مستقرة وليست عابرة ولا موسمية ، استطعنا أن ندرك مدى أهمية الجماعة فى تشكيل سلوك الفرد لدى الشمبانزية ، أو بعبارة أخرى مدى اجتماعية الفرد ، وهو مالا نجده فى حالة الطيور والحشرات بوجه عام ، إذ يتحدد معظم سلوك هاتين الفئتين على أساس عوامل عضوية وعوامل البيئة الفيزيقية للكائن ، وأما نصيب الاكتساب من الآخرين (من أفراد النوع) فضئيل نسبياً .

وتتفق هذه الحقيقة التى انتهينا اليها عن شدة اجتماعية الشمبانزى مع عدة حقائق أخرى نعرفها عن نمط حياته . وأول هذه الحقائق شدة تأثير المنبهات الاجتماعية على الفرد ، وازدياد ميل الفرد إلى محاكاة الآخرين وقدرته على المحاكاة الدقيقة . ومن المظاهر الدالة على شدة تأثير المنبهات الاجتماعية يقظة الدافع الجنسى عند البعض حال مشاهدتهم أحد الأفراد يمارس العملية الجنسية أو يتأهب للقيام بها . ومن المظاهر الدالة على قوة المحاكاة ما يظهر أفراد التجمع من ميل إلى محاكاة القرد الزعيم فى جميع حركاته أثناء قيادته للتجمع ، وما تدل

عليه بعض التجارب من إمكان تعويد الشمبانزية استخدام بعض الآلات ، وذلك بإعطائها المثل الاجتماعى على ذلك (R.M. Yerkes & A.W. Yerkes 1935) أضف إلى ذلك حقيقة أخرى لا تقل عن ذلك أهمية وهى ظاهرة الحنين إلى الجماعة التى تكشف عن مدى ارتباط الفرد بها . وفى ذلك يقول W. Kohler الواقع أن روابط الجماعة لدى الشمبانزية تقوم كقوة حقيقية . ويبدو ذلك بوضوح عندما نحاول أن نبعد أحد الأفراد عن جماعته . فإذا لم يكن هذا الفرد قد مر بمثل هذه الخبرة من قبل فإن رغبته الأولى والكبرى عندئذ تكون فى العودة إلى جماعته . وإذا كان صغيراً جداً فإن هذا الإبعاد يفزعه ، (بل إن الأمر ليؤثر فى كيمياء جسمه فيمرض وقد يموت) ، ويتجلى فزعه لدرجة أن المرء لا يكاد يقوى على استمرار إبعاده . أما الكبار فإنهم لا يبدون الفزع ، لكنهم يصيحون ويصبون غضبهم على جدران حجراتهم ، ويرفضون الطعام إذا قدم لهم ، وإذا ما لاح لهم طريق للعودة إلى جماعتهم فإنهم يخاطرون بحياتهم لكى يعودوا إليها . فإذا ما عاد الفرد المفترق إلى الجماعة فإنه يقع فى إعصار من الفرح (W. Kohler 1931) ويؤكد كهلر اجتماعية الشمبانزى بقوله : ليس من المبالغة فى شىء أن نقول إن الشمبانزى الذى يعزل بعيداً عن أقرانه لا يمكن أن يكون شمانزياً حقيقياً ، ذلك أن بعض الخصال المميزة لهذا النوع من الحيوان لا تظهر إلا عندما يكون فى جماعة . ويرجع ذلك إلى أن سلوك أقران كل شمبانزى يكون بالنسبة له الباعث الملائم الأوحد لإصدار تشكيلة كبيرة من الأساليب الرئيسية للسلوك . وعلى ذلك فالكثير من هذه الخصال لن يفهم بوضوح إلا إذا أدخلنا فى اعتبارنا سلوك أفراد الجماعة وأرجاعهم ككل .

ب ــ أضف إلى ذلك تلك الحقيقة الهامة ، ألا وهى قوة الذاكرة . وقد رأينا فى حديثنا عن الطيور أن بوادر الذاكرة متوفرة لديها ، لكنها ضعيفة جداً . أما فى حالة الشمبانزية فالذاكرة تبلغ درجة من القوة تفوق ذلك بكثير ، بل وتفوق ما هو متوفر لدى الثدييات الدنيا بشكل واضح . وتشهد بذلك ملاحظات

الباحثين المدققين . فكهلر يروى أن الشمبانزية تعرفت عليه بعد مفارقته لها مدة ستة شهور ، وأنها تعرفت على زميلها « سلطان » بعد مفارقته لها لمدة أربعة شهور . ويقرر يركيز أن الشمبانزى يستطيع أن يتذكر الأشخاص بعد سنة من مفارقته لهم بحيث يستجيب لهم استجابة ملائمة . ويرون هيك L. Heck أن شمبانزيًّا تذكر بالفعل أحد الأشخاص بعد سنة من مفارقته ، وتذكر دبًّا كان يلعب معه بعد عدة شهور (R.M. Yerkes & A.W. Yerkes 1929) وقد أجريت هذا الصدد عدة تجارب روى الكثير منها كهلر ويركيز . وخلاصتها أن اختفاء الشيء عن نظر القط يجعله بعيداً عن فكره . بمعنى أننا إذا أخفينا طعاماً مثلا عن نظر القط ، وقمنا بعملية الإخفاء على مرأى منه فإنه لا يلبث أن ينساه ولا يقوم بأية محاولة للحصول عليه . أما الشمبانزى فإنه إذا شاهدنا نخفى طعاماً ظل يتذكره لفترة من الزمن يقدرها يركيز بثمانية وأربعين ساعة . وتؤثر عمليات التذكر هذه فى نشاطه بصورة ملموسة بحيث نجده يسعى إلى التنقيب عن الطعام والحصول عليه (R.M. Yerkes & A.W. Yerkes 1929) وقد روى كهلر تجربة مماثلة أجراها على الشمبانزى « سلطان » ؛ فأخفى فاكهة فى الرمل أما عينى الشمبانزى وكان ذلك فى المساء . وبعد أن مضى على ذلك ست عشرة ساعة ونصف الساعة (قضى الشمبانزى معظمها فى النوم) قام وبحث عنها وأمكنه العثور عليها ، وكانت تبدو عليه جميع دلائل التذكر (W. Kohler 1931). بل إن بعض التجارب لتكشف عن درجة فائقة من الدقة فى عمليات التذكر هذه . فقد تبين أننا إذا أخفينا الطعام فى صندوق ذى لون معين ووضعنا هذا الصندوق وسط مجموعة من الصناديق المماثلة فى الحجم والشكل مع اختلاف فى اللون فإن الشمبانزى يستطيع أن يميز الصندوق المحتوى على الطعام من بين بقية الصناديق بعد نصف ساعة من إخفاء الطعام فيه (R.M. Yerkes & A.W. Yerkes 1929) وهنا نجد لزاماً علينا أن نستبعد فرضاً معيناً قد يقوم لتفسير هذه التجارب غير القول بأنها تعتمد على قوة الذاكرة ودقتها . ونقصد هنا افتراض أن الحيوان يتجه

إلى الطعام تحت تأثير رائحته ، فهذا غير صحيح . ولد حض هذا الفرض يمكن أن نقوم بإخفاء الطعام فى صناديق تغطيها طبقة من الشمع تمنع انتشار رائحته ، ومع ذلك فسنجد الشمبانزية تعثر عليه . ومن ناحية أخرى يمكننا أن نقوم بإخفاء الطعام (مع السماح لرائحته بالانتشار) دون أن ترانا الشمبانزية ثم نطلقها فى مجاله ، فسنجد أنها لا تستطيع الوصول إليه حتى وهى على بعد عشرين سنتيمتراً منه (W.Kohler 1931) .

من الواضح إذاً أننا بصدد ذاكرة قوية نسبياً ، لا تقاس إليها ذاكرة الطيور . أما فيما يتعلق بأفراد النمل فلا نكاد نستطيع أن نتكلم عن ذاكرة . ويكفى للتدليل على ذلك أن محو الأثر الكيميائى (فى أحد أجزاء الطريق) الذى تتركه مجموعة من النمل أثناء سيرها ، لنلحظ بعد ذلك شدة الارتباك والتردد فى سلوك بقية النمل القادم نحو هذا الموضع ، وربما انتهى الأمر بعودته من حيث أتى دون الإقدام على عبور هذا الجزء من الطريق (الذى محونا منه الأثر الكيميائى) الذى سبق أن عبره عدة مرات جيئة وذهاباً .

ولا جدال أن هذه الدرجة من قوة الذاكرة المتوفرة لدى الشمبانزية شرط لا بد منه لقيام هذه الدرجة من تماسك الجماعة[1] واستقرارها. وذلك لسببين :

أولهما — ما تتيحه قوة الذاكرة من تعرف على الآخرين رغم ما يطرأ عليهم ما يطرأ عليهم من تغيرات جسدية ووجدانية . وقد لاحظنا أن هذا غير متوفر فى تجمعات الطيور ، حيث تؤدى أبسط التغيرات التى تنتاب الكائن إلى عدم تعرف الآخرين عليه .

وثانيهما — أن قوة الذاكرة هذه يمكن اعتبارها دالة لثبات الهوية النفسية[2] للكائن إلى حد ما ، مما يدخل الاتساق على أرجاع الكائن . فإذا ما أضفنا إلى ذلك تلك الحقيقة التى أسلفنا ذكرها وهى أن الكثير من جوانب السلوك لدى الشمبانزية مكتسب من الآخرين بدلا من أن يكون محدداً على أساس النضج العضوى كما هو الحال فى الطيور والحشرات ، استطعنا أن نفسر ظاهرة هامة

---

(١) cohesiveness

(٢) psychological identity

فى حياة الشمبانزية ومؤداها أن جماعة الشمبانزية تمتاز بندرة التشاحن والاحتكاك بين أفرادها ، هذا زيادة على استقرارها وتماسكها (R.M. Yerkes & A.W. Yerkes 1935)

حـ ــ هاهنا نتوقف قليلا لنلقى بعض الأضواء على المستوى الارتقائى لهذه التجمعات لأننا لا ندرسها فى ذاتها ، بل ندرسها من حيث هى مقدمة فيلوجينية للمجتمع البشرى . أين توضع إذاً هذه التجمعات بالنسبة للجماعة البشرية من ناحية وبالنسبة لتجمعات النمل من ناحية أخرى ؟

إن الاستقرار والتماسك والتنظيم والتفاعل صفات واضحة فى تجمعات النمل كما أسلفنا القول . لكنها تقوم فى مستوى ارتقائى منخفض ، لأنها لا تتيح التكيف إلا فى نطاق شديد الضيق والجمود . فالاستقرار والتماسك يعتمدان على أساس كيميائى ، والتنظيم يعتمد على أساس مورفولوجى ، والتفاعل يعتمد على تبادل اللمس . أما تجمعات الشمبانزية فتتوفر فيها أيضاً صفات الاستقرار والتماسك والتنظيم والتفاعل ، ولكن فى مستوى ارتقائى أعلى بكثير من المستوى السابق ، لأنها تتيح التكيف فى نطاق أوسع وأشد مطاوعة وتنوعاً من السابق . فالاستقرار والتماسك يعتمدان على عمليات تربوية وعلى ذاكرة قوية ، والتنظيم يعتمد على قيام كل فرد فى الجماعة بدور اجتماعى مستقر متسق له معالمه الواضحة (دون أن يكون هذا الدور مرتبطاً ارتباطاً مباشراً بخصائص مورفولوجية معينة) . وهكذا يروى لنا كهلر W. Kohler كيف أن الشمبانزية « تشيجو » كانت دائماً الزعيم الذى يحترمه الجميع ويخشونه ، بينما كانت « رانا » موضع سخريتهم . وأما « سلطان » فكان فى جميع تصرفاته يكشف عن ذكاء ورعونة بينما كان « قنصل » يكشف عن انفعالية شديدة دائماً . ويحدثنا كذلك عن قيام صداقات بين بعض أفراد التجمع قد لا تظهر دلائلها أثناء سير الحياة العادية ، لكنها تظهر وقت تجمع الأخطار ، فعندئذ يحتضن كل صديق صديقه . وفى النوم أيضاً ، إذ تفضل الشمبانزية وخاصة الصغار أن تنام أزواجاً يحتضن كل صديق صديقه (W. Kohler 1931, p. 299) أضف إلى ذلك ظاهرة أخرى فى التنظيم تدل على

ارتفاع مستواه الارتقائى لدى القردة العليا جميعاً ، وهى أننا نجد أنفسنا هنا بصدد تغاير واضح فى الجماعة يختلف نمطه عن نمط التغاير القائم فى قرى النمل ؛ فثمة جماعة كبرى كأنها رهط أو قبيلة وهذه تتألف من عدة جماعات صغرى أسرية غالباً . والجماعة الصغرى بدورها تنطوى على مسافات اجتماعية مختلفة بين أفرادها ، فبعض الأفراد تتيح العلاقة القائمة بينهم المشاركة فى الطعام ، فى حين أنها لا تتيح ذلك بينهم وبين أفراد آخرين من نفس الجماعة الأسرية . والأنثى تقرب أبناءها الصغار منها دائماً وتساعدهم وقد تلعب معهم ، والصغار قد يتجمعون معاً فى تجمعات عابرة هدفها اللعب ، وهكذا . ومن الواضح أننا لا نجد هذا النمط من التغاير فى تجمعات النمل ولا فى تجمعات الطيور بل ولا فى تجمعات الثدييات الدنيا .

وفيما يتعلق بالتفاعل بين أفراد الجماعة « فالتعامل عن بُعد » عنصر هام يجب إبرازه لإكمال فكرتنا عن ارتفاع هذا المستوى فى السلسلة الارتقائية . وقد تحدث كثير من الباحثين عن قيمة التعامل الصوتى لدى الشمبانزية والقردة العليا بوجه عام . ويروى يركيز عن النسانيس النابحة أنه إذا اقتربت جماعة غريبة من أرض تستقر فيها جماعة أخرى نشأت بين الفريقين معركة بالأصوات لا بالأجسام إذ يقف الفريقان متباعدين ويصدران أصوات التهديد بعضهما إلى بعض ، وقد تنتهى المعركة على هذا النحو بانسحاب الفريق المقترب دون أى التحام جسدى (R.M. Yerkes & A.W. Yerkes 1935) . كذلك إذا استرسل صغيران فى اللعب بالقرب من يافع فإن هذا الأخير لا يلبث أن يصدر صوتاً خاصاً يكون بمثابة التحذير والتهديد للصغيرين ؛ فيتغير سلوكهما بالابتعاد أو التوقف . وفى جماعات الشمبانزية إذا هاجم المدرَّب أحد القردة تحت أنظار الجماعة فإن مظاهر الاضطراب تنتشر بينهم جميعاً . وقد يندفع بعضهم إلى القيام بعمل معين كالشمبانزى « قنصل » الذى كان يجرى مضطرباً ويمد ذراعه إلى من يوقع العقاب على زميله ، وترتسم على وجهه دلائل التوسل ،

ويحاول أن يمسك بذراعه ثم لا يلبث أن ينهال بالضرب على المذنب المعتدى (W. Kohler 1951, p 286) . كذلك إذا شاهد أفراد الجماعة واحداً منهم فى حالة تألم وضعف شديدين لمرض أو ما شاكل ذلك فإنهم يبدون الاهتمام الشديد بالاقتراب منه ومحاولة احتضانه أحياناً . فالقردة العليا بوجه عام والشمبانزية بوجه خاص تتفاعل فيما بينها بناء على ما يصدر عنها من إشارات صوتية وحركية . وقد وصف كهلر ويركيز الكثير من هذه الإشارات، واستطاعا أن يحددا دلالتها . وهذا يتفق كثيراً مع ما يقرره روثمان وتوبير M. Rothmann & E. Teuber ويركيز وغيرهم عن ارتقاء حاستى البصر والسمع لدى الشمبانزية وبلوغهما درجة عالية من الدقة . ومما لاشك فيه أن اعتماد التفاعل على الإشارات الصادرة عن بعد يدخل عليه درجة من المرونة تتمثل فى تنوع أساليب التقارب بين الأفراد مما لانجد له مثيلا فى المستويات الارتقائية الدنيا . وثمة عدة ظواهر سلوكية تدل على درجة عالية من المرونة فى سلوك الشمبانزية نضيفها إلى ما سبق ذكره . ومن أوضح هذه الظواهر ما يشاهد من أن الشمبانزية « لا تستجيب مباشرة لحاجاتها البيولوجية، بل قد توجلها قليلا حتى تنتهى من بعض التعبيرات الانفعالية (W.Kohler 1931, p. 294) ومنها كذلك ما يشاهد من مظاهر تدل على نمو الخيال بدرجة واضحة؛ فالشمبانزى الذى نقدم له المرآة ليرى فيها صورته يقوم ببضع محاولات للوصول إلى الكائن القائم خلف المرآة ، ثم لا يلبث أن يتأكد من عدم واقعيته، ومع ذلك يظل يلعب بالمرآة ولا يفقد الاهتمام بها . فى حين أن الثدييات الأخرى كالكلاب والقطط إذا واجهت مرآة لا تلبث أن تفقد الاهتمام بها بعد أن تتأكد من عدم وجود الكائن الآخر (W. Kohler 1931, p. 317) ومن دلائل نمو الخيال أيضاً ما يقرره روثمان وتوبير من أن الشمبانزى يحلم أثناء نومه . على أن يركيز يثبت زيادة على ذلك وجود المخيلة المبدعة لدى الشمبانزية (R.M. Yerkes & A.W. Yerkes 1929, p. 369) وتعتبر تجارب كهلر الشهيرة أوضح دليل على ذلك، لما تكشف عنه من قدرة لدى الشمبانزية على استعمال الأشياء «كأدوات لأداء

وظائف جديدة » ، أى بعبارة أخرى « لخلق علاقات جديدة » .

والخلاصة إذاً أننا هنا بصدد مستوى عال من مستويات التكامل الاجتماعى ، يتوفر فيه الاستقرار الدائم بدلا من هذا النمط المتقطع الموسمى الذى نشهده عند الطيور . كما تتوفر فيه درجة من التغاير والمرونة تجعل منه نمطاً يختلف اختلافاً كيفياً عن نمط تجمعات النمل المتحجرة . ووجه الشبه والتقارب بين هذا النمط وبين نمط التجمع الإنسانى واضح لا شك فيه .

ويستند هذا التشابه فى نمط التكامل الاجتماعى إلى تشابه بيولوجى وفيزيولوجى يجب ألا نغفله . فالرأى الراجح اليوم أن المدة التى يقضيها الجنين الشمبانزى فى رحم الأم هى تسعة أشهر قمرية ، وهى قريبة جداً من المدة التى يقضيها الجنين البشرى فى رحم أمه ، وهذا يدل على تقارب فى النمو الأمبريولوجى (E.A. Hooton 1947, p. 227) أضف إلى ذلك أن القاعدة العامة هى أن المولود طفل شمبانزى واحد ، وليس عدداً من الصغار ، وهذا يتيح له الفوز بأكبر قسط من عناية الوالدين ويربطه بهما برباط عاطفى قوى ؛ ومن الملاحظ بوجه عام قلة عدد المواليد (فى الدفعة الواحدة) كلما ارتقينا فى سلم التطور حتى تصبح ، القاعدة فى القردة العليا وفى الإنسان هى المولود الواحد (E.A. Hooton 1947, p. 74) ثم إن الشمبانزى يبلغ نضجه الجنسى فيما بين السنة الثامنة والعاشرة من عمره . وهذا الوقت من العمر قريب من بدء البلوغ[1] عند الإنسان (فى مجتمعنا الحديث) ، إذ يقع فى حوالى الثانية عشرة . وتمارس الإناث دورة حيضية كلما انقضت ثلاثون أو واحد وثلاثون يوماً . ولا يوجد لديها فصل خاص للإخصاب كما هى الحال لدى الطيور وبعض فصائل الثدييات الدنيا ، ولكن توجد فترات خاصة لتقبل الأنثى الاتصال الجنسى مرتبطة بالدورة الحيضية . ومتوسط العمر لدى القردة العليا بوجه عام حوالى خمسين عاماً ، وهو قريب من متوسط العمر لدى الإنسان البدائى (R.M. Yerkes & A.W. Yerkes 1929 & 1935) هذا إلى أن الأرجاع الصادرة عن بلازما الدم لدى الإنسان والشمبانزى متشابهة ، فى حين

(١) Puberty

أنها مختلفة عن أرجاع بلازما ذم الثدييات الأخرى (E.A. Hooton 1947, p. 44)

هذا التقارب البيولوجى بين الشمبانزية والإنسان من وراء التشابه فى نمط التجمعات لدى كل منهما ، يقوم — فى نظرنا — دليلا غير مباشر على ارتباط « التكامل الاجتماعى » عامة بشروط بيولوجية وفيزيولوجية معينة لا بد من توفرها حتى يتسنى له أن يتحقق. فبدون هذا التأخر الشديد فى النمو والقدرة على الاستقلال عن الوالدين يتعذر قيام هذا الارتباط الشديد والمتنوع بين الأم والوليد ، ويتعذر بالتالى بلوغ الشمبانزية هذه الدرجةمن« الاجتماعية »التى أوضحنا بعض معالمها . كما أنه لولا توفر اللحاء فى دماغ الشمبانزية بنسبة تفوقالنسبة التى يوجد بها فىأدمغةسائرالثدييات الدنيا ، وبدون ارتقاء الآليات الحسية الحركية لديها (S. Zuckerman 1932) لما تيسرتلها هذه القدرة الكبيرة على التذكر والاكتساب ومرونة السلوكبوجه عام. على أن القدرة على المحاكاة وهى أحد شروط القدرة على الاكتساب تعتمد هى بدورها على ارتقاء « حواس الإدراك عن بعد » وبلوغ مراكزها درجة عالية من التغاير ، وهذا متوفر لدى الشمبانزية فيما يتعلق بحاسة الإبصار . أضف إلى ذلك أن عدم ارتباط النشاط التناسلىللشمبانزيةبمواسممعينة ينشط بحلولهاويخمدبزوالها كماهوالحال لدى الطيور والثدييات الدنيا يبدوشرطاً فيزيولوجيا هاماً لاستمرار ارتباط أعضاء الجماعة الأسرية وعدم تفككها من حين لآخر (R.M. Yerkes & A.W. Yerkes 1935; S. Zuckerman 1932) .

إلا أن هذا التقارب الواضح بين تجمعات الشمبانزية والجماعة البشرية والذى يفرض نفسه علينا ما دمنا ننظر إلى ارتقاء الاستجابات الاجتماعية فى السلسلة الحيوانية ككل،لا يلبث أن ينجلى عن تباعد شديد إذا ما اقتصرنا فى نظرتنا على المقارنة بين تجمعات الشمبانزية والجماعات البشرية فحسب . ولا بد من تغيير دائرة نظرنا هكذا لكى نلمس الفوارق ولكى نلمس المميزات الكيفية للتكامل البشرى ، فنلتمسلها أسسها الكيفية الفارقة . ومن هنا تبدو

أهمية هذه الوقفة التى نقفها عند تجمعات الشمبانزية . فإن النظر فى هذا التقارب بينها وبين الجماعات البشرية من شأنه أن يمكننا أكثر من أى شىء آخر من الاطلاع على الفوارق الدقيقة . وأوضح مواضع الافتراق التى نشهدها على ضوء هذه المقدمة الفيلوجينية ، وأهما جميعاً ، موضعان ، هما :

١ — اللغة .

٢ — والتعاون المنظم المستمر .

١ — فأما فيما يتعلق باللغة فليس لدى الشمبانزية لغة بالمعنى الخاص للغة عند الإنسان . إن الشمبانزية تستطيع أن تصدر مجموعة من الأصوات المتنوعة تنوعاً كبيراً ، وهذه تحتوى على معظم العناصر الصوتية التى تتألف منها لغة الإنسان ؛ لكنها مع ذلك لا تؤلف بينها بطريقة تصنع منها لغة كاللغة الإنسانية ، ولذلك يرجع كهلر W. Kohler أن عدم ظهور اللغة عند الشمبانزية لا يرجع إلى إلى أسباب تتعلق بتركيب الجهاز الصوتى بل إلى أسباب تتعلق بطبيعة ارتقائها العصبى (W. Kohler 1931, p. 305) وقد تحدثنا من قبل عن اعتماد التفاعل الاجتماعى لديها أحياناً على إصدار بعض الأصوات . وهنا يجب أن نقرر أن هذه الأصوات ليست لغة بالمعنى الصحيح . فهى ليست « رسالة موجهة إلى الآخر » هذا مع التسليم بأنه ينفعل لها . ولكنها مجرد تعبير ذاتى كصياح الوليد البشرى نتيجة (R.M. Yerkes & A.W. Yerkes 1929, p. 309) لتقلصات المعدة أو ما شابهها من مصادر التوترات. ولما كان صياح الوليد البشرى لا يمكن أن يسمى لغة رغم انفعال الآخرين له ، ولا يصبح لغة إلا إذا أصبح موجَّها ، طلباً لاستجابات معينة ، وحاملا لدلالات موضوعية إلى جانب دلالاته الذاتية ، فكذلك الأصوات التى تصدرها الشمبانزية لا ترقى إلى مرتبة اللغة ، اللهم إلا أن يتوفر لها هذان العنصران الأخيران ، وهذا مالا يحدث أبداً . ولذلك فإن معظم التفاعل الاجتماعى لدى الشمبانزية يتم بفضل لغة من نوع آخر أكثر بدائية وتحجراً ، هى لغة الإشارات والحركات الجسدية والاستدلال أحياناً ببعض الروائح .

والمبدأ الرئيسى لهذه اللغة هو المحاكاة الجزئية للفعل الذى يريده الشمبانزى من زميله ؛ فإذا أراد مصاحبته فإنه يجذب يده ويقوم بحركات المشى فى الاتجاه الذى يريد ، وإذا أراد الحصول على طعام معين فإنه يقوم ببعض حركات الاختطاف مصحوبة بنظرات التوسل ؛ وهكذا (W. Kohler 1931, p. 307) والفرق كبير بين الإمكانيات التعبيرية التى تتيحها مثل هذه اللغة ، وتلك التى تتيحها اللغة المؤلفة من أصوات دالة ذات مقاطع . والفرق كبير أيضاً بين الشروط العصبية اللازمة لكل منهما ، كما أنه شاسع كذلك بين النتائج المترتبة على استخدام كل منهما فيما يتعلق بالنمو العقلى والتوافق الاجتماعى .

ويرجح يركيز أن يكون السبب فى عدم ظهور اللغة الصوتية عند الشمبانزية رغم وجود جهاز صوتى ملائم ودرجة من الذكاء ملائمة هو فى عدم وجود الميل إلى محاكاة الأصوات . وقد تحدثنا من قبل عن شدة ميلها إلى المحاكاة ، وهنا يجب أن نزيد الأمر تفصيلا فنتحدث عن شدة تخصص هذه المحاكاة . فهى على حد تعبير يركيز محكومة أساساً بوساطة المنبهات البصرية . ولذلك يروى هذا الباحث أنه عندما كان يتعهد الشمبانزيين « شم » و « بانزى » أدهشه أنهما كثيراً ما كانا يحاكيان حركاته ، لكنهما لم يحكيا أبداً الأصوات التى كان يصدرها (R.M. Yerkes & A.W. Yerkes 1929, p. 306) وعلى الضد من ذلك ما نلحظه من ميل لدى الوليد البشرى إلى محاكاة أصوات الآخرين ، منذ الشهور الأولى فى حياته ، بحيث يقرر كوفكا K. Koffka أن هذا الميل فطرى وسابق على كل مران (M.M. Lewis 1936) وقد حاول كل من يركيز وليرند B.W.Learned وفيرنس W.H. Furness أن يعلم بعض أنواع القردة العليا النطق ببعض الأسماء طلباً لمسمياتها ففشلوا (R.M. Yerkes & A.W. Yerkes 1929, p. 304) جميعاً بعد ، جهود شاقة ولا يمكن اعتبار تجربة فيرنس على الأورانج أوتان ناجحة فى استثارة « اللغة » فى أحد المستويات تحت البشرية ، إذ هى لا تعدو إلقاء بعض الضوء على توفر بعض آليات التآزر اللازمة

لظهور اللغة ، ولكن لا يمكن أن نستنتج منها توفر جميع الارتباطات العصبية التى يقوم عليها النشاط اللغوى . ومع التسليم بالنتائج التى انتهى إليها يركيز ونيسين H.W.Nissen[1] من وجود البذور الأولى للعمليات الرمزية ، (M.P. Crawford 1941) وتلك التى انتهى إليها كوتس Kohts من وجود بذور عمليات التجريد والتعميم ، إلا أن هذه جميعاً تظل فى حدود كونها بذوراً ، فهى نادرة التفتح شديدة البدائية فى تفتحها إذا قورنت بما هى عليه فى الإنسان .

٢ — وأما فيما يتعلق بالتعاون المنظم المستمر فهذا أيضاً لا وجود له لدى الشمبانزية وقد نشهد بعض الظواهر التى توشك أن تخدعنا فتشعرنا بوجوده لكن إمعان النظر فيها لا يلبث أن يطلعنا على الحقيقة . ومن بين هذه الظواهر ما رواه كهلر من أنه كثيراً ما كان يشهد الشمبانزية تشترك فى إقامة بناء مرتفع من الصناديق أحدها فوق الآخر ، للوصول إلى هدف معين (كأن يكون طعاماً مدلى من سقف المكان) . إلا أن هذا العمل لم يكن من قبيل العمل التعاونى الذى يكشف عن اشتراك منظم ينطوى على « تقسيم عمل اجتماعى » مستقر بين الأفراد . فكثيراً ما كان يشهد الأفراد تحاول الصعود جميعاً نحو الهدف فى وقت واحد ، وكأن كلا منها يعمل منفرداً . وكان يشهد أحياناً قردين يقيمان البناء جنباً إلى جنب ، ولكن سرعان ما يرى أحدهما يسلك بدون أى اعتبار للآخر ، فلا يلبثان أن يقعا فى عراك ، وكلما ارتفع البناء احتدم الصراع وتوقف العمل عن التقدم . والنتيجة تحطيم هدف العمل أثناء العمل . ثم تبدأ القردة العمل من جديد . وهكذا حتى يدركها الملل . وكان يشهد أحياناً مجموعة تجذب جسما كبيراً (لا يمكن لأحد أفرادها أن يجذبه منفرداً) للوصول بوساطته إلى هدف معين . ولكن كلا منها كان فى الواقع يعمل لحسابه الخاص ولا يعمل فى مشروع جماعى ، إذ سرعان ما كان أحدهم يقفز ويفوز

(١) Yerkes, R. M. & Nissen, H. W. Pre Linguistic Sign Behavior in Chimpanzee, *Science*, 1939, 89. 585-587 (in M. P. Crawford 1941)

بالهدف منفرداً (W. Kohler 1931, p. 661) وقد أجرى كروفورد M.P. Crawford بضع تجارب لاستثارة التعاون بين الشمبانزية، فانتهى إلى نتائج لا تختلف كثيراً مع آراء كهلر التى يقيمها على أساس الملاحظة . ذلك أن ما اعتبره ظهوراً لسلوك الدعوة والإهابة[1] — وفى رأيه أنه بوادر السلوك التعاونى — كان يغلب عليه التحجر ؛ فكانت الشمبانزية «بولا» متكاسلة غالباً بينما كانت « بمبا » تدفعها إلى العمل بأن تلمس ذراعها ورقبتها وتدفعها برفق نحو موضوع العمل . وفى جزء آخر من التجربة حيث كان الطعام يوضع عند إحدى الشمبانزيتين دون الأخرى كانت « بمبا » تحاول دائماً الاختطاف بالقوة إذا كان الطعام عند « بولا » بينما كانت بولا تحاول دائماً التوسل بمد ذراعها إذا كان الطعام عند « بمبا» (M. P. Crawford 1941) ومن الواضح أننا لا نستطيع أن نتكلم هنا عن سلوك تعاونى صحيح . لأن السلوك التعاونى يتضمن القدرة على تغيير موقفنا تبعاً لمواقف الآخرين . وإذا كان كروفورد M.P. Crawford يقرر ظهور سلوك « المراقبة » لتصرفات الآخر فى تجاربه ، وهذا يتضمن محاولة إدراك موقف الغير ، فإن كل مانستطيع أن نستنتجه هنا لايعدو ما سبق أن استنتجناه فيما يتعلق بالعمليات الرمزية وعمليات التجريد والتعميم ، فنحن هنا بصدد البذور الأولى ، وهى نادرة التفتح شديدة البدائية فى تفتحها إذا ما قورنت بما هى عليه فى حالة الإنسان .

وقد حدثنا كهلر عن مظاهر سلوكية خادعة جداً لدى الشمبانزية ، أشد خداعاً من تلك التى يكشف عنها سلوك الشمبانزية فى تجارب كروفورد . فقد كان يرى أحياناً أحد الشمبانزية « يساعد » الآخر فى الوصول إلى شىء معين . ولكنه عندما كان يدخل فى حسابه جميع ملابسات الموقف لم يكن يلبث أن يرى هذه « المساعدة » على حقيقتها . فهى لم تكن تنطوى على « اعتبار موقف الغير وتقديم العون له على هذا الأساس » ، بل كانت تقوم على أساس توفير

(١) solicitation

الشروط اللازمة لاستمرار الفعل؛ إذ أن الشمبانزى يستمتع استمتاعاً فرديا بمشاهدة الآخر يعمل ، كما نستمتع نحن عندما نشاهد شخصاً آخر يقوم بعمل معين نحن نعرف خطواته مقدماً ، فنشارك عندئذ فى هذا العمل ولكن على أساس فردى (W. Kohler 1931, p. 168) نحن «لانعتبر موقف الآخر» ، بل نشارك مشاركة فردية (خيالية) فى استمرار الفعل . والدليل على ذلك أننا لايهمنا عندئذ التعرف على مصادر عجز الآخر لمساعدته إذا بدا أنه يبذل جهداً شاقاً ، بل يهمنا انطلاق الفعل نحو نهايته التى نتخيلها له . إلا أن الأعمال التى تمضى لدينا على هذا النحو هى « بعض أعمالنا مع الآخرين» ، لكنها لدى الشمبانزية تكاد تكون« كل أعمالها مع الآخرين » .

ويرى كهلر أن الشمبانزية أقدر على العرقلة المتبادلة منها على تبادل المساعدة . ويروى مثلا على ذلك حادثة الشمبانزية « جراند » التى رأت شمبانزية أخرى تقيم بناء عالياً من الصناديق فتحفزت لأن تهدمه ، وكثيراً ما كانت تفعل ذلك . فلما اقتربت شعرت بذلك الشمبانزية الأخرى وكانت قائمة فى أعلى البناء ، وعندئذ هدمته هى نفسها بحركة مقصودة قبل أن تمسه « جراند » ، مما أغاظ هذه الأخيرة بشكل واضح (W. Kohler 1931, p. 171)

على أن هذا المثال رغم أنه مثال عن سلوك العرقلة المتبادلة فإنه يكشف لنا فى الوقت نفسه عن توفر أحد الشروط اللازمة لظهور سلوك المعونة المتبادلة . وأعنى به إمكان إدراك « وجهة نظر الآخر » . ولكن من الجلى أن هذا الشرط وحده لا يكفى لظهور السلوك التعاونى .

فماذا ينقص الشمبانزية حتى يظهر لديها السلوك التعاونى الصحيح ؟

ينقصها عدة عناصر أو شروط نوجزها فيما يلى :

١ — المثابرة على العمل المنتج المتواصل . وفى ذلك يروى كهلر الواقعة الهامة التالية : يقول إنه لاحظ أن الشمبانزية « نويفا » كانت مولعة بصنع عُقَد ، وذلك بوساطة بعض الخرق التى تعثر عليها أو بوساطة شرائح من ورق الشجر .

فهى تجمع طرفى الخرقة وتعقدها ، ثم تعقد عقدة أخرى بالجمع بين الطرفين الصادرين من هذه العقدة . وقد ظن كهلر أنها مقدمة على عمل بنائى منتج من قبيل الصناعة اليدوية ، فأعدها إطاراً خشبياً تمر بثقوب منه بضع شرائح من ورق الشجر وقدمه إليها، لعلها أن تصل فى النهاية إلى صنع «نسيج» بدائى . لكنها أولته ظهرها وانصرفت إلى عقدها . فلما حاول أن يضغط عليها لتوجه جهودها نحو هذا العمل المنتج المتواصل أطفأ اهتمامها بالعمل كلية (W. Kohler 1931, p. 312) ويبدو أن هذا العمل الذى أراد كهلر أن يدفعها إليه كان أعلى بكثير من مستوى قدراتها . فلماذا ؟ لسببين يتبينان فى الشرطين التاليين اللذين تفقدهما الشمبانزية أيضاً .

٢ — اتساع « مجال الحياة الزمنى » نحو المستقبل . وقد رأينا فى حديثنا عن الذاكرة اتساع مجال الحياة الزمنى لدى الشمبانزية نحو الماضى . أما فى الاتجاه نحو المستقبل فيبدو أنه لا يتسع بهذا القدر . فالشمبانزية لاتستطيع أن تسقط على المستقبل البعيد صورتها وقد حققت بعض حاجاتها، لتكون بمثابة باعث لها على مواصلة العمل فى اتجاه معين . وقد حدثنا كهلر عن أنها يدخل المستقبل فعلا فى اعتبارها ؛ فقد نجدها تنفق وقتاً طويلا فى إعداد أداة معينة للوصول بها — بعد إعدادها — إلى هدف معين . ولكنا نجدها من حين لآخر تنظر إلى الهدف (W. Kohler 1931, p. 172) والمستقبل هنا ضيق الحدود إلى حد بعيد ، مما لا يتضمن القدرة على العمل طبقاً لخطة بعيدة الأجل . ولما كان « العمل المنتج » يتضمن دائماً العمل طبقاً لخطة وسعياً وراء هدف (خيالى) غير ماثل أمامنا فى الوقت الحاضر — كما هو الحال فى جميع الأعمال الزراعية والصناعية والفكرية — فقد عجز الشمبانزى عن القيام بأى عمل منتج متواصل، وبالتالى عاش فى مرحلة الجمع والالتقاط ، ولم يستطع أن يشيد حضارة كما يقول كروبر A.L. Kroeber[1] (R.M. Yerkes & A.W. Yerkes 1929; p. 255) من

(١) Kroeber, A.L. Sub-human Culture Beginnings, *Quart. Rev. Biol.*, 3, 1928 (in Yerkes 1929).

حيث إن الحضار تجمّع لأعمال منتجة، ومن الواضح أن العجز عن القيام بعمل منتج متواصل لمدة طويلة يقضى على إمكانية التعاون المجدى[١] .

٣ ــ الاستقرار الوجدانى : يبدو كذلك أن من أهم أسباب هذا العجز عند الشمبانزية عجزها عن الاستقرار الوجدانى . ومن الواضح أن الارتباط بقيمة معينة (قيمة الهدف أو قيمة العمل) والتكريس فى سبيلها ، وهما شرطا استمرار العمل ، يتطلبان هذا الاستقرار وهو غير متوفر لديها . وقد حدثنا كهلر عن كثير من مظاهر هذه الانفعالية غير المستقرة . فعندما كان يوقع على أحد الشمبانزية اليافعة أتفه مظاهر العقاب وأخفها كانت تبدى غضباً عنيفاً لا يتناسب وتفاهة العقاب ، ولا يتناسب وسابق سلوكها معه الذى كان ينم فى كثير من لحظاته عن حب وتعاون عابر . كذلك كانت سائر الشمبانزية تندفع فى إعصار من الغضب نحو المدرِّب ومحاولة الاعتداء عليه ، حتى إنه ليقرر ضرورة العدول عن محاولات العقاب نهائياً وإلا تعرض للأذى بلا رحمة ولا اعتبار . ثم إن الشمبانزى الذى وقع عليه العقاب لم يكن يلبث أن يقوم بحركات مؤداها « طلب العفو » بسرعة وبدون استقرار على غضب أو ضغينة . وبوجه عام نجدها عاجزة عن أن ترتبط ارتباطاً وجدانياً عميقاً بأية قيمة جاذبة أو منفرة ، فهى تعيش فى مستوى وجدانى لا يكاد يختلف عن مستوى الطفل البشرى (فى السنتين الأوليين من العمر) من حيث مظهره المتحقق لا من حيث إمكانياته ، أو بعبارة أخرى فى المستوى الوجدانى للسيكوباتى ، الذى يبدى عجزاً واضحاً عن أى ارتباط وجدانى عميق . فما تقوله سوزان أيزاكس S. Isaacs عن الأطفال من أن « بغضهم حاد شديد ، ولكنه ابن لحظته فقط » ، ومن أنهم إذا لم يتعرضوا للقمع عبَّروا عن غيظهم

---

(١) سنتحدث فى موضع قادم عن الارتقاء الاجتماعى للطفل فيما قبل الرابعة . وسنبين حينئذ أن من أهم أسباب عجزه عن تكوين جماعات عجزه عن المساهمة فى وضع « خطط المستقبل » حتى تواصل الجماعة نشاطها .

وتحديهم بتهييج وحدة شديدين نحو من يعترض إحدى رغباتهم وتمنوا زواله والقضاء عليه مهما يكن إخلاصهم له وتفانيهم فى حبه فى أوقات أخرى (س. أيزاكس ١٩٤٦ ، ص ٩٣) . وما يقوله الدكتور صبرى جرجس من شدة ضحالة الحياة الوجدانية وجد بها لدى السيكوباتيين وعجزهم عن الانفعال الناضج (ص . جرجس ١٩٤٩ ، ص ٢٢٩) الذى يمتاز أول ما يمتاز بالاستقرار وتوجيه حياة صاحبه وجهة معينة تمتاز بالاستعداد لانطلاق الاستجابات فى اتجاه معين — ، إنما ينطبق إلى حد كبير على الحياة الوجدانية للشمبانزية . وربما كان تشبيه الشمبانزية بالسيكوباتيين فى هذا الصدد أقرب إلى الدقة من تشبيهها بالأطفال . وإذا جاز لنا أن نستطرد بعض الشىء فى هذا التشبيه قلنا إن مجتمع الشمبانزية يعيش فى المستوى الذى يعيش فيه مجتمع من السيكوباتيين لو أمكن لهذا الأخير أن يوجد . ومن الملاحظات الطريفة فى هذا الصدد عجز السيكوباتيين — الشبيه بعجز الشمبانزية — عن العمل المنتج المستمر سعياً وراء هدف فى المستقبل البعيد . وعجزهم التام عن التعاون الصحيح مع الآخرين .

من هاتين النقطتين ٢ و ٣ يتبين لنا السبب فى أن الشمبانزية « نويفا» انصرفت عن العمل الذى أرادها كهلر أن تقوم به ، فقد كان خارج نطاق قدراتها واستعداداتها الفطرية . كما أن النقاط الثلاثة جميعاً تبين لنا إلى أى حد تفتقد الشمبانزية مقومات السلوك التعاونى المتصل الذى لابد منه لقيام حياة اجتماعية من الطراز الإنسانى .

على أننا نضيف كذلك نقطتين أخريين ، من شأنهما أن يوضحا سبب عدم ظهور السلوك التعاونى لدى الشمبانزية . ومن شأنهما كذلك أن يلقيا بعض الضوء على الدعائم السيكولوجية لنمط الاجتماع الإنسانى .

٤ — « فالقدرة على اعتبار الآخر والاستجابة له فى المستوى الخيالى» مسألة هامة وأساس نفسى هام لظهور السلوك التعاونى . فهى مثلا الأساس العميق الذى تقوم عليه معظم تصرفاتنا نحو أبنائنا فى غيبتهم . فقد تصادفنى فى الطريق

دمية لا ألبث أن أشتريها لأنى « أتخيل » مقدار الفرح الذى ستدخله على ابنتى عندما أفاجئها بها . وقد أؤجل شراء شيء يلزمنى لأشترى بثمنه هدية أقدمها لصديق فى عيد ميلاده ، وقد أبكى بكاء مراً عندما يبلغنى نبأ وفاة شخص من أعزائى ، ويزداد حزنى وبكائى إذا حدثنى البعض فى تفاصيل الحادث الذى أدى إلى وفاته . فى هذه القدرة تكمن بذور المشاركة الوجدانية واستطاعتنا تغيير موقفنا تبعاً لموقف الآخر . وهى التى سماها أندرسون H. H. Anderson بالاستجابة لفوارق الغير (H. H. Anderson 1943) فهل توجد هذه القدرة عند الشمبانزية ؟ كلا . بل يوجد شيء شبيه بها لكنه لا يرقى إلى مستواها . فإذا شاهد أفراد الجماعة فرداً منهم فى حالة تألم وضعف شديدين بدت عليهم علامات الاهتمام الشديد به بل وقد تبدو عليهم مظاهر بذل المساعدة له . وقد نجد أحدهم يقترب منه ويحاول أن يحتضنه ويربت على ظهره . ولكن لو أن هذا الفرد مات فى حجرته دون صياح ولا ضجيج فإن الجماعة لاتشعر بموته ولا تحزن له بل تواصل نشاطها اليومى المعتاد . ومعنى ذلك أن الشمبانزية لا تستطيع المشاركة فى مستوى خيالى (W. Kohler 1931, p. 285) .

٥ ــ كذلك يبدو أن ثمة سبباً خامساً لتعطل السلوك التعاونى لدى الشمبانزية ، ونعنى به انخفاض درجة تخصص الحاجات والدوافع كتخصصها لدى الإنسان . وقد حدثنا كهلر عن الحوافز الجنسية لديها وكيف أنها أقل « تغايراً » من بقية مظاهر النشاط . ولذلك فإن أى تنبيه قوى ــ أيا كان مصدره ــ لا يلبث أن يثير هذه الحوافز ضمن إثارة الشمبانزى إثارة عامة . ويبدو أن هذه الإثارة العامة تنطبق على سائر الدوافع ، هذا إذا أدركناها على أنها دليل على مستوى ارتقائى معين . (من حيث إن زيادة الارتقاء تمضى نحو زيادة التغاير) . ومن الجلى أن مثل هذه التربة ليست صالحة لظهور السلوك التعاونى لدى الأفراد ، لأن يقظة الدوافع المتشابهة فى معظم المواقف من شأنها أن تدفع أصحابها نحو نفس الهدف الخاص ، مما يغلب بينها الصراع والتناحر بدلا

من التعاون . وسنرى عندما نتحدث عن الارتقاء الاجتماعى للطفل كيف أنه يتعذر على الأطفال حتى سن الرابعة إقامة جماعات مستقرة بينهم لأنهم غالباً ما يتعلقون بنفس الأهداف مما يغلب الصراع فيما بينهم ؛ ومن المعلوم أن الأجهزة النفسية لدى الأطفال أقل تغايراً منها لدى الراشدين . كما أن اختلاف الاهتمامات لدى الراشدين وتقسيم العمل الاجتماعى المرتب عليها — من الجوانب الهامة فى عملية التكامل الاجتماعى بوجه عام .

النتيجة النهائية إذاً أن نمط التكامل الاجتماعى لدى الشمبانزية يختلف اختلافاً كيفياً عن نمطه لدى الإنسان . وهو يقوم فى مستوى ارتقائى أدنى منه، بحيث إن الهوة الفاصلة بينهما لا يمكن عبورها بمجرد عمليات تربوية ، لأن هذه الهوة إنما تقوم على اختلافات عضوية حاسمة ، أهمها ضآلة كتلة المخ لدى الشمبانزية بالنسبة لكتلته لدى الإنسان ، إذ تبلغ ربع هذه الأخيرة ، مع أن كتلة جسم الشمبانزى اليافع أقرب من ذلك كثيراً بالنسبة إلى كتلة جسم الإنسان الراشد . أضف إلى ذلك بعض اختلافات فى كيمياء الدم رغم أوجه الشبه التى سبق أن ذكرناها (E.A. Hooton 1947, p. 44) .

إن تجمعات الشمبانزية رغم تفوقها على تجمعات الطيور بالاستقرار ، وعلى تجمعات النمل بالمطاوعة، فإن استقرارها ومرونتها ليبدوان ضئيلين جداً بالنسبة لاستقرار الجماعة البشرية ومطاوعتها، وبالتالى لإمكانياتها . وسنرى فى الفصول القادمة ما هى الأسس النفسية التى يعتمد عليها نمط الاجتماع البشرى ، من حيث إنه نمط فريد فى استقراره وتضامنه من حيث الشدة والعمق ، وفريد فى مطاوعته من حيث الإمكانيات العظيمة لهذه المطاوعة .